

العنوان:	النبوات عند ابن حزم من خلال كتابه الفصل في الملل و الأهواء و النحل
المؤلف الرئيسي:	أبونائب، على محمد عبدالله
مؤلفين آخرين:	الفاهم، نصر بن محمد الكيلاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2008
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 473
رقم MD:	621043
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النبوة ، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ، كتاب : الفصل في الملل و الأهواء و النحل، العقيدة الإسلامية ، الملل و النحل
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/621043

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

أبونائب، على محمد عبدالله، و الفاهم، نصر بن محمد الكيلاني. (2008). النبوات عند بن حزم من خلال كتابه الفصل في الملل و الأهواء و النحل (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان. مسترجع من <http://621043/Record/com.mandumah.search/>

أسلوب MLA

أبونائب، على محمد عبدالله، و نصر بن محمد الكيلاني الفاهم. "النبوات عند بن حزم من خلال كتابه الفصل في الملل و الأهواء و النحل" رسالة ماجستير. جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، 2008. مسترجع من <http://621043/Record/com.mandumah.search/>

رجل قتل بجريرة نفسه فقتل، أو رجل زنى بعد إحصان، أو رجل حارب الله
ورسوله وارتد عن الإسلام " (١). هو عموم، مخصوص بالأحاديث الدالة
على قتل الساحر . والله أعلم (٢).

الفصل الثالث : عصمة الأنبياء والتفاضل بين الخلق لدى ابن حزم .

وفيه ثلاثة مباحث:

^١ سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

^٢ عبد الرحمن بن عبدالعزيز الداود : العقوبات في الإسلام، ص ١٨٥ .

المبحث الأول: كلام ابن حزم في عصمة الأنبياء

المبحث الثاني: ردود ابن حزم على من تكلم في بعض الأنبياء.

المبحث الثالث: ذكر ابن حزم للتفاضل بين الخلق.

المبحث الأول : كلام ابن حزم في عصمة الأنبياء

ولما كان الكلام على الشيء فرع عن تصوره، كان لزماً علينا أن نبدأ
بمعنى العصمة.

المطلب الأول: تعريف العصمة

١ . معنى العصمة في اللغة:

يراد بالعصمة في اللغة معان عديدة منها :

١ - المنع قال صاحب اللسان في مادة عصم: " العِصْمَةُ في كلام العرب
المنع وعِصْمَةُ اللَّهِ عَبْدَهُ أَنْ يَعْصِمَهُ مِمَّا يُؤْبِقُهُ ،عَصَمَهُ يَعْصِمُهُ عَصْماً:
مَنْعَهُ وَوَقَّاهُ وفي التنزيل: [لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ] (١) أي لا

^١ سورة هود آية ٤٣ .

مَعْصُومٌ إِلَّا الْمَرْحُومُ وَقِيلَ هُوَ عَلَى النَّسَبِ أَيُّ ذَا عِصْمَةٍ وَذُو الْعِصْمَةِ
يَكُونُ مَفْعُولًا كَمَا يَكُونُ فَاعِلًا^(١)

ثم قال: "قال الأزهري: وَالْحَذَّاقُ مِنَ النُّحَوِيِّينَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ لَا عَاصِمَ
بِمَعْنَى لَا مَانِعَ وَأَنَّهُ فَاعِلٌ لَا مَفْعُولٌ وَأَنَّ مَنْ نَصَبَ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ وَاعْتَصَمَ
فَلَانٌ بِاللَّهِ إِذَا امْتَنَعَ بِهِ"^(٢).

٢ . الحفظ قال في لسان العرب: "والعِصْمَةُ: الْحِفْظُ، يُقَالُ: عَصَمْتُه
فَانْعَصَمَ وَاعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ إِذَا امْتَنَعْتَ بِطُفْهِهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَعَصَمَهُ الطَّعَامُ
مَنَعَهُ مِنَ الْجُوعِ وَهَذَا طَعَامٌ يَعْصِمُ أَيُّ يَمْنَعُ مِنَ الْجُوعِ وَاعْتَصَمَ بِهِ وَاسْتَعْصَمَ
امْتَنَعَ وَأَبَى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ حِينَ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ
:[فَاسْتَعْصَمَ]^(٣) أَيُّ تَأَبَّى عَلَيْهَا وَلَمْ يُجِبْهَا إِلَى مَا طَلَبَتْ"^(٤).

٣ . القِلَادَةُ قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: "وَالْعِصْمَةُ الْقِلَادَةُ وَالْجَمْعُ عِصَمٌ وَجَمْعُ
الْجَمْعِ أَعْصَامٌ"^(٥).

وفي التنزيل [وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ]^(٦)

٤ . الْحَبْلُ قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: "قَالَ الزَّجَاجُ: أَصْلُ الْعِصْمَةِ: الْحَبْلُ وَكُلُّ مَا
أُمْسَكَ شَيْئًا فَقَدْ عَصَمَهُ"^(٧).

^١ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٣ .

^٢ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٤ .

^٣ سورة يوسف الآية ٣٢ .

^٤ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٤ .

^٥ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٥ .

^٦ سورة الممتحنة آية ١٠ .

^٧ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٥ .

ثم قال : "وقال ابن المظفر أَعْصَمَ إذا لجأ إلى الشيء وأَعْصَمَ به وقوله واعتَصِمُوا بحبل الله أي تَمَسَّكُوا بعهد الله وكذلك في قوله ومن يَعْتَصِمَ بالله أي مَنْ يَتَمَسَّكُ بحبله وعَهْدِهِ" (١).

وكل هذه المعاني في معنى العصمة متقاربة، وهي بلا شك متحققة في المعصوم حيث أن الله يمنعه ويحفظه من الوقوع في المحذور ويقيه من كبائر المعاصي وصغائرها الخسيسة بلطف منه سبحانه وتعالى . والمعصوم بلا ريب متمسك بحبل الله وعهده. ويلاحظ أن معنى العصمة في اللغة له ارتباط وثيق بالمعنى الاصطلاحي لها ويوضح ذلك التالي...

٢ . معنى العصمة في الاصطلاح:

القائلون بالعصمة منهم من زعم أن المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي فسلبه الاختيار (٢)، ومنهم من لم يسلبه الاختيار؛ لذا اختلفت العبارات في تعريف العصمة وتفسيرها اصطلاحاً.

فالذين سلبوا المعصوم الاختيار : "منهم من زعم أن المعصوم : المختص في بدنه أو نفسه بخاصية تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي .

ومنهم من ساعد على كونه مساوياً لغيره في الخواص البدنية ؛ لكن فسر العصمة بالقدرة على الطاعة (١)" (٢). فهذان فريقان.

١ محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٤٠٥ .

٢ انظر د.عبد الغني عبد الخالق :حجية السنة، الدار العلمية لكتاب الإسلام والمعهد العلمي للفكر الإسلامى، طبعة معادة ل: ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ص ٨٧ وما بعدها . وقد نسبها صاحبها إلى الرازي في محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ٥٨ .

والذين لم يسلبوا المعصوم الاختيار : "فسروها: بأنها: الأمر الذي يفعله الله تعالى بالعبد وعلم أنه لا يقدم مع ذلك الأمر على المعصية ، بشرط أن لا ينتهي فعل ذلك الأمر إلى حد الإلجاء" (٣).

أما الذين سلبوا المعصوم الاختيار فقد لخص القانوني (٤) مذهب الفريقين منهم في تعريف العصمة قائلاً : "هي (٥) محض فضل الله تعالى : بحيث لا اختيار للعبد فيه . وذلك إما بخلقهم على طبع يخالف غيرهم: بحيث لا يميلون إلى المعصية ، ولا ينفرون عن الطاعة . كطبع الملائكة . وإما بصرف همتهم عن السيئات ، وجذبهم إلى الطاعات؛ جبراً من الله بعد أن أودع الله في طبائعهم ما في طبائع البشر" (٦).

١ وأي: وعدم القدرة على المعصية انظر حجية السنة الحاشية رقم ٦ ص ٨٧.

٢ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، ص ٨٧ ، ٨٨. وأحال المؤلف إلى الرازي : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ٥٨، قال: ثم نسب الفخر الرازي القول بسلب المعصوم الاختيار إلى الأشعري وهذا وهم من الرازي؛ لأن تعريف العصمة - "بالقدرة على الطاعة" كما عرفها الأشعري "وبأن لا يخلق الله فيهم ذنباً" كما عرفها صاحب المواقف - لا يستلزم سلب الاختيار عند الأشاعرة فإن اختيار العبد عند الأشاعرة [موجود فيه قبل خلق الله الفعل ، وقبل خلقه القدرة الحادثة عليه: بالنسبة لجميع الأفعال الاختيارية من النبي أو من غيره. ثم إذا تعلق هذا الاختيار بالفعل ، وعزم العبد عليه عزمًا مصممًا: خلق الله الفعل والقدرة الحادثة. وقد لا يتعلق الاختيار بالفعل، ولا يعزم العبد عليه عزمًا مصممًا: فلا يخلقهما تعالى. مع أن أصل هذا الاختيار موجود. فعدم الخلق والقدرة الحادثة على المعصية : إنما يستلزم عدم العزم المصمم؛ لاعدم الاختيار.] انظر حجية السنة ص ٩٠ ، ٩١ .

٣ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، ص ٨٨ ، وقد نسب د. عبد الغني إلى الرازي في محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ٥٨ .

٤ القانوني هو اسماعيل بن محمد بن مصطفى القانوني ، الحنفي أبو المجدى عصام الدين، عالم محقق، أصولي مفسر، ولد بقونية الشيخ مصطفى المرعشي، وجل انتفاعه من عبد الكريم القانوني له تأليف كثيرة منها : حاشية على تفسير البيضاوي، والرسالة العلمية، والحاشية على المقدمات الأربع لصدر الشريعة، والرسالة العنادية وغير ذلك. انظر خير الدين الزركلي : الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١ ، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

٥ أي العصمة.

٦ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، ص ٨٨ الحاشية برقم ٥ . نقلاً عن القاري في شرح الفقه الأكبر ص ٥٧ .

ولما كان الغرض من هذين الفريقين نفي صدور الذنب عن المعصوم قال فريق منهم في تعريف العصمة إنها: "خاصية في نفس ناطقة لشخص أو في بدنه يتمتع بسببها صدور الذنب عنه"^(١).

ويمكن إبطال قول من سلب المعصوم الاختيار.:

١ . من العقل بأن يقال: لو كان الأمر كما قالوه: لما استحق المعصوم على عصمته مدحاً، ولبطل الأمر والنهي، والثواب والعقاب وبطلان ذلك بالإجماع^(٢).

٢ . ومن النقل: بقوله تعالى: [قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي]^(٣)

وقوله تعالى: [ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً]^(٤)

وأما الذين لم يسلبوا المعصوم الاختيار فقد جاءت تعريفاتهم للعصمة مماثلة أو مقاربة لتعريف الفخر الرازي . حيث عرفها "بأنها: الأمر الذي يفعله الله تعالى بالعبد وعلم أنه لا يقدم مع ذلك الأمر على المعصية ، بشرط ان لا ينتهي فعل ذلك الأمر إلى حد الإلجاء"^(٥). كما تقدم وهذا التعريف للفخر يماثل تعريف الإمام أبي منصور الماتريدي : العصمة لا تزيل المحنة^(٦) أي : "أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية بل

^١ القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدي نكري: دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٢٣٤ ، و انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة، ص ٩٠ .

^٢ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : وأحال إلى شرح المواقف ج ٣، ص ٢١٦ .

^٣ سورة الكهف آية ١١٠ .

^٤ سورة الإسراء آية ٧٤ .

^٥ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة، ص ٨٧ .

^٦ وأعجبنى تفسير قول الماتريدي العصمة لا تزيل المحنة بأن معناه : العصمة لا تزيل التكليف، انظر القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدي نكري: دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ج ٢، ص ٢٣٣ .

هي : لطف من الله يحمله على فعل الخير ويزجره عن فعل الشر تحقيقاً للاختبار^(١). ويقرب من هذين التعريفين للعصمة تعريف الحكماء لها بأنها : "ملكة تمنع من الفجور"^(٢). وقال المناوي العصمة : "ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"^(٣)، يعني مع بقاء الاختيار تحقيقاً للاختبار^(٤). والعصمة عند أهل الكلام: "خلق مانع غير ملجئ"^(٥) وقال الماتريدي : العصمة لا تزيل المحنة^(٦). وقال أهل الإثبات العصمة : "قوة الإيمان"^(٧). وقال الراغب في تعريف عصمة الأنبياء: "حفظه إياهم بما خصَّهم به من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميّة والنفسيّة ، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم ، ثم بإنزال السكينة عليهم ، وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق"^(٨).

ومن أجمل التعريفات، تعريف العصمة بأنها: "ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية، والميل إليها مع القدرة عليها، وتمنع من خطأ الرسول ، أو نسيانه فيما يبلغه عن ربه ، ولذلك يجب الإيمان بكل ما يخبر الرسل به عن الله

^١ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تحقيق: عدنان درويش ، و محمد المصري، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ج ١/ص ٦٤٥.

^٢ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة ص ٩١. قال في شرح المقاصد في علم الكلام: "وقالت الفلاسفة هي ملكة تمنع الفجور مع القدرة عليه " انظر سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني: شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية ، باكستان ، ط ١، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج ٢، ص ١٦٠ .

^٣ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٣٣، ص ١٠٠.

^٤ انظر القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري: دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ج ٢، ٢٣٣.

^٥ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، (١٠٠/٣٣). قال: "وهو الذي اعتمده ابن الهمام في تحريره"أ.هـ . انظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٣٣ ، ص ١٠٠ ، ١٠١.

^٦ أي الابتلاء المقتضي لبقاء الاختيار، انظر أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ج ١، ص ٦٤٥.

^٧ انظر علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: هلموت ريتز ، ط ٣ ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٦٤. ونسب الأشعري هذا القول إلى أهل الإثبات.

^٨ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٣٣، ص ١٠٠. ونسبه إلى الراغب .

تعالى، وتجب طاعتهم فيما يأمر به" (١). وهو تعريف جيد، لاشتماله على القدر المجمع عليه في العصمة وهو العصمة في التبليغ، كما أن فيه إثبات الاختيار للمعصوم.

والتحقيق في تعريف العصمة اصطلاحاً فيما يبدو لي . وهو مستفاد من أصح الأقوال في تعريفها . :أنها حفظ الله تعالى لأنبيائه من تغير الفطرة ، ومن الخطأ في تبليغ الوحي ، ومن الكذب والخيانة مطلقاً؛ لمنافاة ذلك لمداول المعجزة، ومن اقتراف الكبائر مع قدرتهم عليها ، ومن الوقوع في الصغائر الخسيسة مع قدرتهم عليها أيضاً ، ومن تعمد المعاصي مطلقاً ، ومن الوقوع في سائر ما يعد عيباً ، والله أعلم .

وهو التعريف الأمثل للعصمة . فيما يبدو لي . اصطلاحاً؛ لأن فيه تجنب الألفاظ التي تجعل المعصوم مسلوب الاختيار، مع مراعاة الأخذ بالقدر المجمع عليه من العصمة بين أهل السنة والجماعة، أو بما قال به الجمهور منهم.

المطلب الثاني:الكلام على عصمة الأنبياء قبل النبوة.

لقد تطرقنا في تعريف العصمة إلى أن الأنبياء والرسل معصومون . وقد اختلف العلماء في مسألة العصمة لذا وجب علينا طلب الحق في هذه المسألة.

فهل العصمة خاصة فيما يتعلق بالتبليغ فقط ؟ وماذا عن العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة؟ هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ؟ وهل العصمة من

١ المصدر : موقع وزارة الأوقاف المصرية <http://www.islamic-council.com> مفاهيم إسلامية ج ١ ، ص ٢٢٣ .

الكبائر والصغائر أو من الصغائر فقط أو من بعضها؟ أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟ وما الدليل على ذلك عقلاً وسمعاً؟^(١)

كل هذه الأسئلة وغيرها تأتي الإجابة عليها في المطالب التالية إن شاء الله تعالى، لكن الذي يهمنا في هذا المطلب هو الكلام على عصمة الأنبياء قبل النبوة.

ويشمل ذلك الكلام على عصمتهم من الكفر والمعاصي من ثلاث نواحي : من حيث الوقوع وعدمه، ومن حيث امتناعه سمعاً، ومن حيث امتناعه عقلاً. وتقصيل ذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: الكلام على عصمة الأنبياء من الكفر قبل البعثة.

أما من حيث وقوع الكفر وعدمه: فالمتوارث أنه لم يبعث الله نبياً قط أشرك بالله طرفة عين^(٢)، أو كان جاهلاً بالله، أو بصفة من صفاته، أو تشكك في شيء من ذلك^(٣). وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتتزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة^(٤).

ثم "إن قريشاً قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في

^١ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحارثي: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (أو مجموع فتاوى ابن تيمية)، ج ١٠، ص ٢٩٣.

^٢ انظر محمد أمين المعروف بأمير بادشاه: تيسير التحرير، دار الفكر، بيروت ج ٣، ص ٢٠.

^٣ انظر القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، المكتبة العصرية، بيروت،

١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٨ م، الجزء الثاني، ص ٢٩٣.

^٤ القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، الجزء الثاني، ص ٢٩٣.

شئ من ذلك تعبيراً لواحد منهم برفضه آلهتهم، وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل، أفضح وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آبائهم من قبل، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه^(١). وقس على ذلك جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما من حيث السمع، فلا دليل على كفر واحد من الأنبياء قبل البعثة، وكل دليل أُوهم ذلك، وضح العلماء المراد منه بحيث نفوا عن الأنبياء المتوهم من الكفر قبل بعثتهم جملة وتفصيلاً.

قال صاحب تنزيه الأنبياء: "ومعلوم من دين الأمة أنه ما كفر نبي قط، ولا جهل الله تعالى، ولا سجد لوثن، ولا أخبر تعالى عن واحد منهم بالكفر"^(٢) قال: "فمن قال بسوى هذا فعليه الدليل، ولا دليل"^(٣).

بل الدليل السمعي قد قام على عصمة بعضهم . فقد قال تعالى: [وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤)]^(٤) .

^١ القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، الجزء الثاني، ص ٢٩٣، ٢٩٤ .

^٢ أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بابن خير: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، تحقيق د. أحمد عبد الجليل الزبيبي، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، ص ١٠٧ .

^٣ أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بابن خير: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، ص ١٠٧ .

^٤ سورة الأنبياء الآيات ٥١-٥٤ .

بل نقل بعضهم الإجماع على عصمتهم من الكفر قبل النبوة، كما في:

١. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية في شرح قوله:

وأن كل واحد منهم سلم * من كل ما نقص ومن كفر عصم

قال: " (و) أن كل واحد منهم (من كفر) بجميع أنواعه (عصم) قبل النبوة وبعدها" (١).

ثم قال " قال العلامة السعد التفتازاني: وفي عصمتهم من سائر الذنوب تفصيل وهو أنهم معصومون عن الكفر، قبل الوحي وبعده بالإجماع" (٢).

٢ . شرح المسامرة قال: " وشرطها [أي النبوة] أيضاً العصمة من الكفر قبل النبوة وبعدها" (٣).

٣. شرح العقائد النسفية (٤).

٤ . المواقف للإيجي حيث قال: "وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها. ولا خلاف لأحد منهم في ذلك غير أن الأزارقة من

١ العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، دار الخاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .

٢ العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

٣ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة حاشية رقم ١٨ ص ١١٣، وأحال إلى المسامرة وشرحها (١/ ١٩٥) .

٤ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة حاشية رقم ١٩ ص ١١٣ .

الخوارج جوزوا عليهم الذنب. وكل ذنب عندهم كفر فلزمهم، تجويز الكفر، بل يحكى عنهم أنهم قالوا: بجواز بعثة نبي علم الله تعالى أنه يكفر بعد نبوته^(١).

وكما نقل إجماع الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر قبل مبعثهم، كذلك أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء بعد البعثة من الكفر. ولم يخالف أحد منهم ذلك، إلا من لا يعتد بخلافه ممن قال بجواز الكفر على الأنبياء بعد بعثتهم، كالأزارقة وغيرهم^(٢) وسيأتي الرد عليهم تفصيلاً إن شاء الله عند الكلام على ذلك فيما بعد البعثة.

وأما من حيث امتناع الكفر قبل البعثة عقلاً، فقد ذهب الروافض إلى امتناعه، بل وامتناع سائر المعاصي، قالوا: "لأن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة عن اتباعهم وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعثة الرسل ووافقهم على ذلك أكثر المعتزلة إلا في الصغائر"^(٣).

^١ عضد الدين الإيجي: المواقف ج ٣، ص ٤١٥.

^٢ وسيأتي الرد إن شاء الله على الفرق التي جوزت الكفر على الأنبياء وهم: الأزارقة والفضيلية من فرق الخوارج، والروافض، والباقلاني في ما نسبته إليه ابن حزم. انظر ص ٢١٩ وما بعدها.

^٣ علي بن محمد الأمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ، تحقيق: د. سيد الجميلي ج ١، ص ٢٢٤.

وكثير من المعتزلة جوزوا عقلاً بعثة نبي كان كافراً^(١). وهذا أيضاً قول أبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة^(٢)،. وكذلك قال بهذا ابن فورك^(٣) حيث جوز بعثة من كان كافراً قبل النبوة ثم زعم أن هذا الجائر لم يقع^(٤).

وهذا أيضاً هو مذهب القاضي أبو بكر حيث جزم بأنه لا يمتنع عقلاً إرسال من أسلم وآمن بعد كفره^(٥). وأيده الآمدي في الإحكام حيث قال: "والحق ما ذكره القاضي لأنه لا سمع قبل البعثة يدل على عصمتهم عن ذلك والعقل دلالة مبنية على التحسين والتقبيح العقلي ووجوب رعاية الحكمة في أفعال الله تعالى وذلك كله مما أبطلناه في كتبنا الكلامية"^(٦).

والتحقيق: هو القول بأن حكمة الله اقتضت أن لا يبعث نبياً كان كافراً .

والإمام ابن حزم رحمه لم يتكلم في عصمة الأنبياء من الكفر قبل المبعث، لكن يستشف مذهبه في هذا من أقواله والتي خلاصتها أنه ينزه الأنبياء قبل المبعث عن الوقوع في الكبائر، وعن كل ما يؤذون به، ومعلوم أن من جملة ما يؤذون به الكفر؛ لذا نقول: إذا كان ابن حزم ينزه الأنبياء قبل النبوة عن الوقوع في الكبائر، فلا جرم أن نقول: بأنه ينزههم عن الكفر من باب أولى. والله أعلم.

^١ انظر علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

^٢ فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج ٣، ص ٨.

^٣ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة ص ١١٤، ١١٥ .

^٤ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة ص ١١٤، ١١٥. مع حاشية رقم ٢٧ ص ١١٤، وقد ذكر د. عبد الغني أن هذا القول نسبته الرازي في محصله ص ١٦٠ لابن فورك.

^٥ انظر علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

^٦ علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

بل توجد إشارة إلى ما ذهبنا إليه من كلام الإمام ابن حزم عندما قال دفاعاً عن موسى عليه السلام: "وذكروا قول موسى عليه السلام [فعلتها إذا وأنا من الضالين] (١) فقول صحيح وهو حاله قبل النبوة، فإنه كان ضالاً عما اهتدى له بعد النبوة، ضلال الغيب عن العلم، كما تقول: أضللت بعيري لا ضلال القصد إلى الإثم وهكذا قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: [ووجدك ضالاً فهدى] (٢) أي ضالاً عن المعرفة وبالله تعالى التوفيق" (٣). فلم يفسر الضلال بضد الهدى في إشارة واضحة لتنزيهه عن الكفر والشرك.

المسألة الثانية: الكلام على عصمة الأنبياء من المعاصي قبل البعثة.

بادئ ذي بدء نقول: إن الكلام على عصمة الأنبياء من المعاصي قبل البعثة يتضمن أيضاً كما ذكرنا، ثلاث نواحي: هي الكلام عليها من حيث الوقوع وعدمه، ومن حيث امتناعه سمعاً، ومن حيث امتناعه عقلاً.

أما من حيث وقوع المعاصي وعدمه، فالمثوارث أن الله لم يبعث من نشأ فحاشا سفيهاً (٤)، ولا من ارتكب كبيرة، بل ولا صغيرة مستحقة، ولا كافراً كما مر (٥)، ولا من نشأ كذاباً.

وإنما بعث من كان بعيداً عن كل ذلك، واتصف بالصدق والأمانة، وسائر الأخلاق العظيمة، والصفات التي تدل على الكمال البشري.

١ سورة الشعراء الآية ٢٠ .

٢ سورة الضحى الآية ٧ .

٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٣٣ .

٤ انظر محمد أمين المعروف بأمير بادشاه: تيسير التحرير، ج ٣، ص ٢٠.

٥ انظر ص ٢١٥ .

وحسبك مثلاً على ذلك، تلقيب الكفار لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالأميين، واعترفهم بدوام صدقه وانتقاء الكذب عنه جملة، وذلك عندما أجابوه عن سؤاله [أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟] (١) بقولهم [ما جربنا عليك إلا صدقاً] (٢). هذا هو الواقع الذي اعترف به من كفر بالرسول والأنبياء، قبل من آمن بهم.

وأما من حيث العقل:

١. فقد ذهب أكثر المعتزلة إلى أنه يمتنع على الأنبياء صدور الكبائر ومنع بعضهم الصغائر الخسيسة دون الصغائر غير الخسيسة (٣).

٢. وذهبت الروافض إلى امتناع صدور المعاصي . كبيرها وصغيرها . من الأنبياء، وعللوا ذلك بأن صدورها منهم "يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة عن اتباعهم وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعثة الرسل ووافقهم على ذلك أكثر المعتزلة إلا في الصغائر" (٤).

٣. وذهب القاضي أبو بكر وأكثر أهل السنة وكثير من المعتزلة إلى أنه لا يمتنع عقلاً: أن يرسل الله من فعل صغيرة أو كبيرة ولو كفراً (٥).

والحق هو القول: بجواز صدور الصغيرة غير الخسيسة منهم عليهم السلام، ولقد أجاب من جوزها من أهل السنة والأشعرية والجهمية والمعتزلة،

١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب القسامة في الجاهلية، باب وأندر عشيرتك الأقرين واخفض جناحك ، ج٤، ص ١٧٨٧، (٤٤٩٢).

٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب القسامة في الجاهلية، باب وأندر عشيرتك الأقرين واخفض جناحك ، ج٤، ص ١٧٨٧، (٤٤٩٢).

٣ عضد الدين الإيجي: المواقف ج ٣، ص ٤١٦. وانظر حجية السنة د. عبدالغني عبد الخالق ص ١١٥.

٤ علي بن محمد الأمدي أبو الحسن: الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

٥ انظر علي بن محمد الأمدي أبو الحسن: الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

على من منع المعاصي من الروافض مطلقاً بحجة النفرة والإحتقار، بوجوه منها:

١. أن الإحتقار إنما ينشأ عن صدور المعصية علانية. ودعواكم امتناع صدور المعصية علانية كانت أو سراً .

قال صاحب كتاب حجية السنة : " اللهم إلا أن يقال: سقوط الهيبة خاصة المعصية وهو بعيد" (١).

٢. أن النفرة عن اتباع الرسل منقوضة بما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من المنفرات بعد البعثة : " فَقَدْ كَانَتْ الْحَرْبُ سَجَالًا بَيْنَهُ ، وَبَيَّنَ الْكُفَّارِ ، وَكَانَ ذَلِكَ يُنْفِرُ قُلُوبَ قَوْمٍ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يُعْصَمْ عَنْهُ" (٢).

و أيضاً "قَدْ ارْتَابَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ النَّسْخِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } (٣) ، وَجَمَاعَةٌ بِسَبَبِ الْمُتَشَابِهَاتِ فَقَالُوا : كَانَ يُفْدِرُ عَلَى كَشْفِ الْغِطَاءِ لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَخَلَّصَ الْخَلْقَ مِنْ كَلِمَاتِ الْجَهْلِ ، وَالْخِلَافِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } ، وَهَذَا لِأَنَّ نَفْيَ الْمُنْفِرَاتِ لَيْسَ بِشَرْطِ دَلَالَةِ الْمُعْجَزَةِ" (٤).

١ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة ، ص ١١٦ .

٢ محمد بن محمد الغزالي أبو حامد : المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣ هـ ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

٣ سورة النحل الآية ١٠١ .

٤ محمد بن محمد الغزالي أبو حامد : المستصفى في علم الأصول، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

قال في حجية السنة : ولك أن تقول: إن العقول السليمة لا تنفر من الجهاد والنسخ والمتشابهات؛ لتضمنها لكثير من الحكم والمصالح، بخلاف المعاصي فهي قبيحة في ذاتها^(١).

أقول: وللمستدل أن يقول: هذا القول حق، ونحن لم ندع أن كل القلوب تنفر من ذلك، ولكن كلامنا معكم فيمن حصلت له النفرة، أليست نفرتة ممن قال: رجعت من حق إلى حق في أمر النسخ وفي المتشابه، أشد ممن قال: رجعت من باطل إلى حق كما هو الشأن في التوبة من المعاصي؟ فهذا هو الذي رمينا إليه، ورددنا عليه^(٢).

٣. نمنع لزوم الاحتقار والنفرة وعدم الإتياع، لمن كان مرتكباً قبل البعثة شيئاً من المعاصي؛ لأن حسن السيرة بعد ذلك يعكس الحال : فيصير موقراً بعد احتقاره، والواقع يشهد بانقياد الخلق إلى إجلاله، بل المعجزة تؤكد ذلك؛ لأنها جذابة للخلق إلى الاعتقاد بهم^(٣).

وأرى أن هذا الرد الأخير، هو من أقوى الردود. وبه يتبين أن القول بالنفرة من الأنبياء نتيجة لوقوعهم في شيء من المعاصي لا يتم، بل الدليل العقلي يدل على انجذاب الخلق إليهم، خاصة إذا قيدنا المعاصي الواقعة من الأنبياء قبل النبوة بالصغيرة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وأن الله سبحانه اقتضت حكمته ألا يبعث نبياً قد ارتكب كبيرة، وأن الأنبياء لا يؤخرون التوبة مطلقاً .

^١ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة ، ص ١١٧ .

^٢ انظر أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ ، ج ٢ ، ص ٤١٣ .

^٣ انظر د. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة ص ١١٨ .

وهذه الردود تبين أيضاً أن" الذين يجوزون بعثة كل مكلف من الجهمية والأشعرية ،ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة، كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم، متفقون أيضاً على أن الأنبياء أفضل الخلق وأن النبي لا يكون فاجراً لكن يقولون هذا لم يعلم بالعقل بل علم بالسمع "(١). وقولهم هذا مبني على ما أصلوه من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن.

والصحيح هو رأي الجمهور الذين يثبتون الحكمة والأسباب فيقولون نحن نعلم بما علمناه من حكمة الله أنه لا يبعث نبياً فاجراً(٢)

هذا من حيث الجواز العقلي ، وأما من حيث الواقع فقد تقرر(٣) أن الأنبياء هم أفضل البشر منذ صباهم وإلى مبعثهم، وأنه ما ارتكب نبي كبيرة قط، ولا صغيرة مستحقة، وأنهم أعظم الناس أخلاقاً، كيف لا، وقد اصطفاهم الله من بين خلقه، لتبليغ رسالته، وإيصال أمره ونهيه إلى عباده لعبادته؟

وأما من حيث السمع فقد صرح بعضهم بعدم عصمتهم من الكبائر، كما في شرح العقائد النسفية ، إلا أنه تضارب فقال بعد ذلك "والحق منع ما يوجب النفرة. كعهر الأمهات، والفجور والصغائر الدالة على الخسة "(٤). ويرتفع التضارب إذا قلنا: بأنه اعتمد على الدليل العقلي عند إثبات العصمة ، أما عندما نفاه فقد نظر إلى الدليل السمعي فلم يجد دليلاً سمعياً على عصمتهم من الكبائر(٥) .

١ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس : منهاج السنة النبوية، في نقض كلام الشيعة والقدرية، ج ١، ص ٤١٩.

٢ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، ج ١، ص ٤١٩.

٣ انظر ص ٢١٧.

٤ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة ص ١١٣ .

٥ انظر د. عبد الغني عبد الخالق : حجية السنة ص ١١٣ ، ١١٤.

ونقول: بل ورد الدليل السمعي على عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المعاصي قبل النبوة وهو قوله تعالى: [ما ضل صاحبكم وما غوى]^(١). كما فسره الرازي حيث قال: "فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً ، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيماً، يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد: إنه سفيه غير رشيد ، ولا تقول إنه ضال ، والضال كالكافر ، والغاوي كالفاسق ، فكأنه تعالى قال : { مَا ضَلَّ } أي ما كفر ، ولا أقل من ذلك فما فسق"^(٢).

ويستدل الإمام ابن حزم على عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الوقوع في المعصية كبيرة كانت أو صغيرة بحديث على ابن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهيمون به إلا مرتين من الدهر، كلتهما يعصمني الله منهما. قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلي مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فلما خرجت فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وصوت دفوف وزمير، فقلت ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانه لرجل من قريش فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال لي ما فعلت، فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل، فخرجت فسمعت مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس،

^١ سورة النجم الآية ٢.

^٢ فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج ٢٨ ، ص ٢٤٢.

فرجعت إلى صاحبي، فقال لي: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً، فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية، حتى أكرمني الله بنبوته^(١)."

قال ابن حزم: "فصح أنه عليه السلام لم يعص قط بكبيرة ولا بصغيرة، لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا هم قط بمعصية صغرت أو كبرت، لا قبل النبوة ولا بعدها، إلا مرتين بالسمر، حيث ربما كان بعض ما لم يكن نهى عنه بعد، والههم حينئذ بالسمر ليس هما بزنا، ولكنه بما يحذو إليه طبع البرية من استحسان منظر حسن فقط. وبالله تعالى التوفيق"^(٢).

ولا يبعد رأي الإمام ابن حزم من رأي العلماء القائلين: بأن مسألة الكلام على صدور المعصية قبل النبوة، تصورها كالممتنع، فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع، كالقاضي عياض^(٣)، وغيره. فالإمام ابن حزم يرى تنزيه الأنبياء قبل المبعث عن الوقوع في المعاصي كبريها وصغيرها، ولكنه لا ينزههم عن الههم بالصغيرة، فيجوز وقوعه منهم .

فهو يرى أن النبي قبل النبوة إن كان متعبداً بشريعة نبي أتى قبله، فلا يعصي نبي ربه أصلاً.

^١ (الحاكم) محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، كتاب التوبة والإنابة، ج ٤/ص ٢٧٣، (٧٦١٩) ذكر الشيخ الألباني أن هذا الحديث رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي ابن أبي طالب وقال عنه صحيح على شرط مسلم، ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر، ثم حكم بضعفه، قال: وفي الحديث علتان، ثم قال: قال الحافظ هذا حديث غريب وقد يكون عن علي نفسه، قال: وحديث الطبراني فيه جماعة لا يعرفون كما قال الهيثمي في المجمع، انظر محمد ناصر الدين الألباني: دفاع عن الحديث النبوي، مكتوب على الآلة ص ١٤ .

^٢ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٩.

^٣ انظر القاضي أبي الفضل عياض اليحصي: الجزء الثاني، ص ٣١٥.

وإن كان قد نشأ في قوم دثرت شريعتهم فهو غير عاص لله فيما يفعل أو يذر، لأنه غير متعبد بأوامر لم تأت منه الله، إلا أن الله قد عصم الأنبياء قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة^(١).

ويوضح ما سبق جلياً قوله: "فإن كان النبي متعبداً بشريعة ما فقد أبطلنا أنفاً أن يكون نبي يعصي ربه أصلاً.

وإن كان نشأ في قوم دثرت شريعتهم فهو غير متعبد ولا مأمور بما لم يأت به أمر الله تعالى به بعد، فليس عاصياً لله تعالى في شئ يفعله أو يتركه، إلا أننا ندري أن الله عز و جل قد طهر أنبياءه وصانهم من كل ما يعابون به لأن العيب أذى وقد حرم الله عز و جل أن يؤذى رسوله قال تعالى: ﴿لِأَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢) "(٣)".

وهذا الذي ذكره الإمام ابن حزم هو الذي يشهد له واقع الأنبياء وتشهد له النصوص، ولذلك فلم يتردد الإمام ابن حزم في القول بعصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوة مصرحاً بذلك، مع حرصه على ذكر بعض الكبائر التي عصموا منها حيث قال: "فبيقين ندري أن الله تعالى صان أنبياءه عن أن يكونوا لبغية أو من ولادة بغى أو من بغايا بل بعثهم الله تعالى في حسب قومهم فإذا لا شك في هذا فبيقين ندري أن الله تعالى عصمهم قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة فدخل في ذلك السرقة والعدوان والقسوة

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٨ .

^٢ سورة الأحزاب الآية ٥٧ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٨ .

والزنا واللياسة والبغي وأذى الناس في حريمهم وأموالهم وأنفسهم وكل ما يعاب به المرء ويتشكى منه ويؤذى بذكره" (١).

وخلاصة القول أن الإمام ابن حزم يقول بعصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل المبعث من المعاصي كبيرها وصغيرها، ولكنه لا يقول بعصمته من الهم بالصغيرة. وهو يعتقد ذلك ، ويستدل عليه بالسمع وهو الحديث السابق الذي يرى صحته، وبالواقع ويدل عليه ما أوردناه وهو قوله: "إلا أننا ندري أن الله عز و جل قد طهر أنبياءه وصانهم من كل ما يعابون به" (٢) ، وهذا الاستدلال بالواقع والمتوارث، له صلى الله عليه وسلم ولسائر الأنبياء عليهم السلام.

ويرى الإمام ابن حزم . كما مر . أن الأنبياء قبل النبوة ليسوا عاصين لله تعالى في شئ يفعلونه أو يتركونه؛ لأنهم غير مأمورين بما لم يأمرهم الله به بعد. وفي قوله هذا نزاع بينه وبين من خالفه من أهل السنة والجماعة، إذ النصوص مشعة بوقوع الصغائر غير الخسيصة من الأنبياء، وقد حملها بعضهم على ما قبل النبوة، جمعاً بين النصوص والعصمة، إذ العصمة بعد النبوة أكد؛ لذا رأوا حملها في زمان قبل البعثة أحوط.

والتحقيق: أن النصوص التي تحتل هذا وهذا، فحملها والحالة هذه إلى ما قبل البعثة أحوط. والله أعلم.

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٨.

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٨.

المطلب الثالث: العصمة بعد النبوة .

لقد اهتم ابن حزم بالكلام على عصمة الأنبياء، خاصة بعد النبوة، حتى عقد لذلك فصلاً سماه هل تعصى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

نعم، لقد كان لابن حزم رأيه الواضح في تنزيه الأنبياء بعد المبعث عن تعمد الكبائر، وكذلك يرى أنهم منزهون عن تعمد الصغائر، لكن يجوز عليهم الصغائر سهواً من غير قصد، ومثل لذلك بسلام النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة من اثنتين وقيامه من اثنتين، ويجوز عليهم الخطأ حالة كونهم يريدون به وجه الله، فيقع على خلاف مراد الله، إلا أن الله تعالى لا يقرهم على السهو ولا على الخطأ، ويبين لعباده وقوعه منهم، ومثل للخطأ: بقصة عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه وغير ذلك (١).

ولقد وضع الإمام ابن حزم رحمه الله رأيه هذا في مواضع عديدة منها هذا الموضع الذي ذكر فيه اختلاف الناس في الأنبياء، هل تعصى أم لا (٢)؟

قال رحمه الله: "وذهب جميع أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز ألبة أن يقع من نبي أصلاً معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة وهو قول ابن مجاهد الأشعري شيخ ابن فورك والباقلاني" (٣).

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٦ .

^٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥ وما بعدها.

^٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٦ .

قال: "وهذا قولنا الذي ندين الله تعالى به ولا يحل لأحد أن يدين بسواه" (١)، فنزهمهم رحمه الله بعد النبوة عن تعمد المعاصي جميعها، كبيرها وصغيرها.

ووضح أن ما يقع من الأنبياء من خطأ في صغيرة ما، لو وقع من واحد منا لكان محموداً عليه، بل مأجوراً أجراً واحداً، ومثل لذلك بقصة عبدالله ابن أم مكتوم، كما ذكرنا ذلك قبل قليل، وحاصلها: أنه لما أعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم طمعاً في إسلام بعض صناديد قريش لعلمهم يدخلون الإسلام ويكونون سبباً في إسلام غيرهم، لما لهم من التأثير في قريش. وكان صلى الله عليه وسلم مطمئناً بأنه سيلقى ابن أم مكتوم فيعلمه مما علمه الله، كما طلب هذا الأعمى رضي الله عنه منه ذلك. عاتبه الله على ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بأن أولئك النفر من قريش لا يستحقون الاهتمام، وأن الأولى بالاهتمام هو هذا الضرير رضي الله عنه.

ولو صدر منا مثل هذا، لما كنا "مؤخذين بما سهونا فيه ولا بما قصدنا به وجه الله عز و جل فلم يصادف مراده تعالى، بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً" (٢).

وأما الأنبياء عليهم السلام فهم مؤخذون بذلك، وكما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وما سوى السهو والخطأ في الصغيرة، فإن ابن حزم يرى عصمة الأنبياء بعد النبوة منه، فالأنبياء عنده بعد بعثتهم معصومون من الكفر، ومن تعمد المعاصي مطلقاً، ومن الكذب مطلقاً، خاصة في التبليغ.

١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٦ .

٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٦ .

بل كفر ابن حزم من قال بالأقوال التالية :

١ . إن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عمداً، حاشي الكذب في التبليغ فقط.

ونسب ابن حزم هذا القول إلى الكرامية من المرجئة، وإلى ابن الطيب الباقلاني من الأشعرية^(١) ومن اتبعه، قال: وهو قول اليهود والنصارى^(٢).

٢ . يجوز على الرسل عليهم السلام جميع المعاصي عمداً، ويجوز عليهم الكذب في التبليغ.

قال ابن حزم: إنه سمع من يحكي هذا القول عن بعض الكرامية^(٣).

٣ . كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل حاشا الكذب في التبليغ فقط، وجائز عليهم أن يكفروا.

قال ابن حزم: إنه رأى هذا القول في كتاب أبي جعفر السمناني^(٤) قاضي الموصل صاحب الباقلاني^(٥).

^١ هو : محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني المتكلم على مذهب الأشعري : من أهل البصرة سكن بغداد، كان بارعاً في الكلام، قوياً في الحفظ . مات في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ، في داره بدرب المجوس من نهر طابق، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب ، انظر أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ج ٥، ص ٣٧٩، ٣٨٢ .

^٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

^٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

^٤ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمود أبو جعفر القاضي السمناني، ولد سنة ٣٦١ هـ، وسكن بغداد ، كان ثقة عالماً، فاضلاً، سخيّاً، حسن الكلام، عراقي المذهب، ويعتقد في الأصول مذهب الأشعري، ومات بالموصل وهو على القضاء بها، وكانت وفاته في يوم الإثنين السادس من شهر ربيع الأول من سنة ٤٤٤ هـ، انظر أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١، ص ٣٥٥.

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

ثم حكم ابن حزم على الأقوال السابقة، بعد أن نقلها بقوله: "وهذا كله كفر مجرد، وشرك محض، وردّه عن الإسلام، قاطعة للولاية، مبيحة دم من دان بها وماله، موجبة للبراءة منه، في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" (١).

وقد نسب ابن حزم القول بعدم جواز كبيرة من الكبائر أصلاً على الرسل عليهم الصلاة والسلام مع تجويز الصغائر عليهم بالعمد الى ابن فورك الأشعري (٢).

والإمام ابن حزم يستنكر تجويز الصغائر عليهم بالعمد أيما استتكار، وقد ناقش من يقول بذلك كما حكى هو عن نفسه حيث قال: "ولقد قلت يوماً لبعضهم: ممن كان يجيز عليهم الصغائر بالعمد، أليس من الصغائر تقبيل المرأة الأجنبية وقرصها؟ فقال: نعم . قلت: تجوز أنه يظن بالنبي صلى الله عليه و سلم أنه يقبل امرأة غيره متعمداً؟ فقال: معاذ الله من هذا، ورجع إلى الحق من حينه، والحمد لله رب العالمين" (٣).

وهذا والله هو الحق الذي نراه، وتالله لا يمكن أن يتعمد نبي كبيرة أو صغيرة.

ونقول: بل أجمعت الأمة على امتناع الكبائر والصغائر التي فيها الرذيلة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، كيف لا وهم القدوة، فلا يتصور وقوع الكبائر منهم ولا الصغائر الرذيلة قطعاً. وكذلك أجمعت الأمة على عصمتهم صلوات الله وسلامه عليهم في كل ما يتعلق بالتبليغ.

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥٦ .

قال ابن عطية : "وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ" (١)، ومن الكبار ومن الصغائر التي فيها رذيلة (٢) ، واختلف في غير ذلك من الصغائر" (٣) .

وكذلك الكفر لا يتصور وقوعه منهم عليهم السلام من باب أولى ؛لمناقضته لبعثتهم، ومنافاته لاصطفائهم؛ ولأن القلوب تنفر عن كانت هذه سبيله، وقد ذكرنا إجماع الأمة على عصمتهم منه بعد النبوة، واتفاق المحققين منهم قبل النبوة وقد حكي بعضهم الإجماع على ذلك أيضاً (٤).

قال الإمام الشاطبي في الموافقات : "وقد قالوا في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وعبادة غير الله، إن ذلك: لأن القلوب تنفر عن كانت هذه سبيله، وهذا المعنى جار من باب أولى فيما بعد النبوة بالنسبة إلى فروع الملة فضلاً عن أصولها، فإنهم لو كانوا أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ويأتونه عياداً بالله من ذلك، لكان ذلك أولى منفر، وأقرب صاد عن الإتياع" (٥).

١ حكي الإجماع على عصمة الأنبياء في التبليغ شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج ١٥، ص ١٤٨ .
٢ وقد حكي القاضي أبو بكر أيضاً إجماع المسلمين على عصمة الأنبياء من الكبار ، وكذا حكاه ابن الحاجب وغيره من متأخري الأصوليين، وكذا حكوا عصمتهم من صغائر الحسة. انظر محمد بن علي بن محمد الشوكاني: إرشاد الفحول الي تحقيق الحق من علم الأصول ، تحقيق: محمد سعيد البدري أبو مصعب ، ط ١ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، ج ١ ، ص ٦٩ .

٣ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي : تفسير البحر المحيط ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، و الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق (١) د. زكريا عبد المجيد النوقي (٢) د. أحمد النجولي الجمل، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان/ بيروت، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م، ج ١ ، ص ٥٦٢ .

٤ انظر ص ٢١٦ .

٥ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي: الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز، دارالمعرفة، بيروت ، ج ٤ ، ص

ولم يقل بجواز الكفر على الأنبياء بعد البعثة إلا من لا يعتد بخلافه، وهم:

١. نقل ابن حزم في الفصل أنه رأى في كتاب أبي جعفر السمناني قاضي الموصل صاحب الباقلاني^(١): أن كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل حاشا الكذب في التبليغ فقط، وجائز عليهم أن يكفروا^(٢).

وقد مر علينا أن ابن حزم حكم على من قال هذا بالكفر^(٣).

٢. الأزارقة: وهم فرقة من فرق الخوارج وقد نقل عنهم أنهم قالوا بجواز بعثة نبي علم الله أنه يكفر بعد نبوته^(٤).

٣- الفضيلية: وهم من فرق الخوارج قالوا بجواز الكفر على الأنبياء^(٥) من جهة كونهم يعتقدون جواز صدور الذنوب عن الأنبياء وكل ذنب عندهم هو كفر - على حسب اعتقادهم - فمن هذا الباب جوزوا صدور الكفر عنهم.

٤- الرافضة: فقد جوزوا على الأنبياء إظهار الكفر^(٦) على سبيل التقية عند خوف الهلاك، بل نقل عنهم أنهم أوجبوه. ويعلون ذلك بقولهم: إن إظهار الإسلام إن كان مفضيا إلى القتل كان إلقاء للنفس في التهلكة، وإلقاء النفس

^١ سبقت ترجمته ص ٢٢٨ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ، ص ٥ . وانظر ص ٢٢٨ .

^٤ انظر عضد الدين الإيجي : المواقف ج ٣، ص ٤٢٦ .

^٥ انظر: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي لبكري فخر الدين الرازي: عصمة الأنبياء، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، ص ١٨ . و انظر فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج ٣، ص ٧٠. وانظر علي بن محمد الأمدي أبو الحسن: الإحكام في أصول الأحكام، ج ١، ص ٢٢٤.

^٦ انظر محمد بن عمر الرازي: عصمة الأنبياء ص ١٨.

في التهلكة حرام لقوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (١) وإذا كان إظهار الإسلام حراما كان إظهار الكفر واجبا.

و ليس هنالك ما يبرر الاختلاف في عصمة الأنبياء بعد النبوة ؛ لدلالة المعجزة على صدق الأنبياء ومكانتهم عند الله . الدال عليها اصطفاؤهم صلوات الله وسلامه عليهم من بين الخلق . دلالة ينتقي معها وجود كل ما ينافي مدلول المعجزة أو يقدر في أنهم هم صفوة البشر وقدوتهم، كالكذب مطلقاً في التبليغ وغيره، وتعتمد كبائر المعاصي وصغائرها الرذيلة، والوقوع في الكفر بعد البعثة، فإن ذلك كله من المحال عقلاً . بل والشرع يؤكد ذلك، فلم يرد شرعاً عن نبي واحد أنه وقع في شيء مما ذكرناه بعد بعثته، وقد أكد ذلك كله الإجماع كما مضى، ولا يعتد بخلاف من خالف ذلك، أو بعض ذلك .

بل ليس هناك ما يبرر القول بتعمد الصغائر غير الخسيصة منهم عليهم السلام، فنحن نقطع كما يقول الإمام ابن حزم: "على خطأ من جوز على أحد من الملائكة ذنبا صغيرا أو كبيرا بعمد، أو خطأ من جوز على أحد من النبيين ذنبا بعمد صغيرا أو كبيرا" (٢).

و لقد استدلل الإمام ابن حزم على أنه لم يكن ألبتة أن يعصي نبي ربّه عمداً بعدة براهين منها :

^١ سورة البقرة الآية ١٩٥ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٣، ص ٢٨٩ .

١ . قوله صلى الله عليه وسلم [ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين](^١)
لما قال له الأنصاري هلا أو مات إلى في قصة عبد الله بن سعد بن أبي
سرح قال الإمام ابن حزم: "فنفي عليه السلام عن جميع الأنبياء عليهم
السلام أن تكون لهم خائنة الأعين، وهو أخف ما يكون من الذنوب، ومن
خلاف الباطن للظاهر، فدخل في هذا جميع المعاصي صغیرها، وكبیرها،
سرّها، وجهرها"(^٢). يعني رحمه الله أنه لا يقع نبي في معصية بعمد مطلقاً ،
ولله دره في هذا الاستدلال فإنه استدلال قوي جداً.

٢ . إننا مندوبون إلى الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام وإلى التأسي بهم في
أفعالهم كلها(^٣).

واستدل الإمام ابن حزم لكونهم هم القدوة والأسوة بقوله تعالى : [لقد كان لكم
في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر](^٤)
و قوله تعالى [أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده](^٥).

قال الإمام ابن حزم بعد أن ذكر أدلة الاقتداء السابقة : "فصح يقيناً أنه لو
جاز أن يقع من أحد من الأنبياء عليهم السلام ذنب بعمد صغيراً وكبيراً كان
الله عز وجل قد حضنا على المعاصي، وندبنا إلى الذنوب، وهذا كفر مجرد

^١ (أبو داود) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، كتاب
الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، ج ٣ ، ص ٥٩ ، (٢٦٨٣ . لكن لفظه عند أبي داود " إنه لا ينبغي لنبي أن تكون
له خائنة الأعين " . قال الألباني في الصحيحة : صحيح . انظر محمد ناصر الدين الألباني : السلسلة الصحيحة ج ٤ ، ص ٢٢٢ . برقم
١٧٣٢ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ٥٤ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

^٤ سورة الأحزاب الآية ٢١ .

^٥ سورة الأنعام الآية ٩٠ .

ممن أجازته، فقد صح يقيناً أن جميع أفعال الأنبياء التي يقصدونها خير وحق" (١).

٣ . إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على ذي الخويصرة إنكاراً عظيماً إذ قال: اعدل يا محمد إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله (٢) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل أيأمنني الله ولا تأمنوني] (٣).

٤ . ويستدل الإمام ابن حزم أيضاً بقوله عليه السلام لأم سلمة أم المؤمنين إذ سألته عن الذي قبل امرأته في رمضان ألا أخبرتها أنني فعلت ذلك .

ويؤكد ابن حزم رحمه الله أن غضب النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال له لست مثلاً قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، يدل على عدم تعمد الأنبياء للذنب وإن صغر (٤).

قال ابن حزم رحمه الله: "فأنكر عليه السلام إذ جعل له ذنباً بعمد وإن صغر و قال له عليه السلام: [إني والله لأعلمكم بالله وأتقاكم لله أو كلاماً هذا معناه] (١)" (٢).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥ .

^٣ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الزكاة، باب ذكر الخواص وصفاتهم، ج ٢، ص ٧٤١، (١٠٦٤). ولفظه عند مسلم "فجاء رجل كثر اللحية، مشرف الوجنتين غائر العينين نأتىء الجبين مخلوق الرأس، فقال: اتق الله يا محمد قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن يطع الله إن عصيته أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله، يرون أنه خالد بن الوليد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لمن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد".

^٤ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥ .

٥ . ولو جاز من الأنبياء عليهم السلام شيء من المعاصي وقد ندبنا إلى التأسى بهم وبأفعالهم لكننا قد أبيحت لنا المعاصي وكنا لا ندري لعل جميع ديننا ضلال وكفر^(٣).

٦ . القول بجواز صدور الكبائر من الأنبياء . كالسرقة واللواط والزنا والبغاء . مناف لتوقيرهم، وفيه استهزاء بهم^(٤).

٧ . إذا جازت المعاصي على الأنبياء فما الذي يجعلنا نأمن كذبهم في التبليغ، ولو كان الأمر كذلك فلعلهم بلغوا إلينا الكذب عن الله تعالى^(٥).

ونتيجة ذلك فلعل أفعالهم التي نأتى بها تبديل للدين، ومعاص لله عز وجل ولا فرق^(٦).

٨ . وهذا دليل يستدل به الإمام ابن حزم على عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المعاصي وهو قول الله تعالى " إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً"^(٧) .

^١ (مسلم) ، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الصيام ، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرومة على من

لم تحرك شهوته، ج ٢ ، ص ٧٧٦ (١١٠٨) .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٥ .

^٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٦ .

^٤ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٧ .

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٧ .

^٦ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٧ .

^٧ سورة الفتح الآيات ١ ، ٢ .

قال ابن حزم بعد ذكر هذا الدليل: "ومن الباطل المحال أن يتم الله نعمته على عبد ويعصى الله بما كبر وما صغر، إذ لو كان ذلك لما كانت نعمة الله تعالى عليه تامة بل ناقصة، إذ خذله فيما عصى فيه" (١).

رد ابن حزم على من نفى السهو عن الأنبياء عليهم السلام بحجة التأسى بهم

أجاب ابن حزم عليهم بوجوه:

١. إنكار ما ثبت كإجازة ما لم يثبت سواء ولا فرق، والسهو من الأنبياء قد ثبت بيقين، فلا يجوز إنكاره (٢).

٢. نَدَّبُ الله تعالى لنا إلى التأسى بالأنبياء عليهم السلام لا يمنع من وقوع السهو منهم؛ لأن التأسى بالسهو لا يمكن إلا بسهو منا، ومن المحال أن نندب إلى السهو، أو نكلف السهو؛ لأننا لو قصدنا إليه، لم يكن حينئذ سهواً (٣).

٣. الانتهاء عن السهو ليس في بنية البشر، ولا في وسعهم وقد قال تعالى: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" (٤).

٤. نحن مأمورون إذا سهونا أن نفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سها (٥).

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٦.

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥.

٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥.

٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٥.

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٦.

ولعل ابن حزم يرمي بكلامه هذا أن الحكمة من سهو الأنبياء هو التشريع لأممهم، ولولا ذلك لما عرف أتباع الأنبياء ماذا يفعلون حين السهو. ويوضح هذا الوجه ما يليه وهو ...

٥ . إن الله تعالى لا يقر الأنبياء عليهم السلام على السهو، بل ينبههم في الوقت، ولو لم يفعل ذلك تعالى لكان لم يبين لنا مراده منا في الدين^(١)، وهذا تكذيب لله عز وجل إذ يقول تعالى "تبياناً لكل شيء" ^(٢) "وإذ يقول " اليوم أكملت لكم دينكم" ^(٣) وقوله تعالى " وقد فصل لكم ما حرم عليكم" ^(٤). قال الإمام ابن حزم: " فسقط قول من نسب إلى الأنبياء عليهم السلام شيئاً من الذنوب بالعمد صغیرها وكبیرها إذ لم يبق لهم شبهة يموهون بها أصلاً وإذ قد قامت البراهين على بطلانها ولحقوا بذی الخویصرة" ^(٥).

اعتراض ذكره ابن حزم مع رده عليه

قال أبو محمد "فإن قال قائل: إنكم تقولون إن الأنبياء عليهم السلام مؤخذون بما أتوا على سبيل السهو والقصد إلى الخير إذا لم يوافق مراد الله تعالى فهلا أؤخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهوه في الصلاة" ^(٦)

رد الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: " قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذه فضيلة مما فضل به على جميع النبيين عليهم السلام، وهكذا نص عليه السلام في حديث الشفاعة يوم القيامة ومصير الناس من نبي إلى

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٦ .

^٢ سورة النحل الآية ٨٩ .

^٣ سورة المائدة الآية ٣ .

^٤ سورة الأنعام الآية ١١٩ .

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٦ .

^٦ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٧ .

نبي فكل ذكر خطيئة أو سكت، فلما ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم قال قائلهم: عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فبطل أن يؤخذ بما غفره الله" (١).

المطلب الرابع: محل الإجماع في العصمة ومحل الخلاف فيها.

علمنا مما سبق أن الأنبياء والرسل معصومون قبل النبوة وبعدها من الكفر والشرك، ومن الكبائر، ومن الصغائر الخسيسة بإجماع المحققين من علماء المسلمين.

واختلفوا في الصغائر غير الخسيسة، فجوزها بعضهم مع توبتهم الفورية، ومنعها آخرون.

لكن القدر المجمع عليه باتفاق الأمة جميعها، هو العصمة في التبليغ، وهو مقصود الرسالة، كما قال الإمام ابن تيمية حينما حكى الإجماع في ذلك

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٧، ٥٨.

حيث قال: في الفتاوى الكبرى: "إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه" (١). ثم قال: "وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة" (٢). ثم قال: "والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين" (٣).

وأما العصمة في غير التبليغ، فمما يدل على أن الحق مع من يقول بإثباتها للأنبياء أن أصول نفاة العصمة التي بنوا عليها كلامهم في العصمة فاسدة، فقد جوزوا على الله فعل كل ممكن (٤) ؛ وكذلك فإن حجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء ؛ لأن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوباً (٥).

قال ابن عطية : "وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ، ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة (٦) ، واختلف في غير ذلك من الصغائر" (٧) .

١ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٠ .

٢ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٠ .

٣ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٠ . وقد حكى ابن تيمية الإجماع في العصمة في التبليغ.

انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: منهاج السنة النبوية، ج ١٠، ص ٤١٠ .

٤ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: منهاج السنة النبوية، ج ٢، ٣١٣، ٤١٤ .

٥ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٣ .

٦ وقد حكى القاضي أبو بكر أيضاً إجماع المسلمين على عصمة الأنبياء من الكبائر ، وكذا حكاه ابن الحاجب وغيره من متأخري الأصوليين، وكذا حكوا عصمتهم من صغائر الخسة. انظر محمد بن علي بن محمد الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ج ١، ص ٦٩ .

٧ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ١، ص ٥٦٢ .

وقد اتفق القائلون بالعصمة في غير التبليغ أن الأنبياء عليهم السلام لا يُقرون على ذنب مطلقاً ، وهذا هو القول الموافق للآثار المنقولة عن السلف^(١).

قال في أضواء البيان: "وحاصل كلام الأصوليين في هذه المسألة عصمتهم من الكفر وفي كل ما يتعلق بالتبليغ ومن الكبائر وصغائر الخسة كسرقة لقمة وتطفيف حبة"^(٢).

محل الخلاف في العصمة:

علمنا أنه لا خلاف في عصمة الأنبياء في التبليغ بإجماع المسلمين.

والاختلاف في العصمة في غير التبليغ عند من أثبتها حاصله هو: هل ثابت بالعقل أم بالسمع؟

و هل العصمة من الكبائر والصغائر معاً أم من الكبائر فقط؟

ومن قال بالعصمة من الصغائر هل العصمة عنده منها جميعاً أم من الصغائر الخسيسة دون غير الخسيسة؟

وهل العصمة من العمد، أم يدخل في العصمة غير العمد من الخطأ، والسهو، والزلة، كما هو مذهب الروافض؟

وهل العصمة من الذنوب في فعلها أم في الإقرار عليها؟

وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟^(٣)

^١ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ .

^٢ انظر محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج ٤ ، ص ١١٩ .

والحاصل أن الناس تكلموا في مسألة العصمة بحسب أصولهم في أفعال الله تعالى كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى^(٢):

فمن نفى الحِكم والأسباب في أفعاله سبحانه، وجعلها معلقة بمحض المشيئة، وجوز عليه فعل كل ممكن، ولم ينزهه عن فعل من الأفعال، كما هو قول الجهم بن صفوان، وكثير من الناس كالأشعري ومن وافقه من أهل الكلام من أتباع مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من مثبتة القدر، فهؤلاء جوزوا بعثة كل مكلف، والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة عندهم مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه، فالنبوة والرسالة عندهم صفتان ثبوتيتان إضافيتان لا تستلزمان صفة تختص بهما . ومن هنا لم يقولوا بعصمة الأنبياء فقالوا بجواز بعثة نبي كان كافراً أو فاجراً، بل قالوا : جائز على الله أن يبعث نبياً ثم يكفر، أما الذين أثبتوا العصمة بعد النبوة من أتباع الجهم والأشعري كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما فقد قالوا : إن العقل لا يوجب عصمة النبي إلا في التبليغ خاصة فإن هذا هو مدلول المعجزة وما سوى ذلك إن دل السمع عليه وإلا لم تجب عصمتهم منه؛ ولذلك فمن أثبت ما أثبت من العصمة منهم في غير التبليغ كالقاضي أبي بكر كان اعتماده على الإجماع؛ لأن الإجماع عنده حجة، وما سوى ذلك فيقول: لم يدل عليه عقل ولا سمع^(٣).

ومن أثبت الحِكم والأسباب في أفعاله سبحانه وهو الصحيح، أثبت العصمة للأنبياء ، وقال بموجبها.

^١ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

^٢ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: منهاج السنة النبوية، ج ٢ ، ص ٣١٣ وما بعدها.

^٣ انظر أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: منهاج السنة النبوية، ج ٢ ، ص ٤١٤ .

والتحقيق أن يقال :إن حكمة الله اقتضت أن يعصم أنبياءه من الكفر قبل النبوة وبعدها، ومن الكبائر والصغائر الخسيصة. بل نقل ابن عطية الإجماع من الأمة على ذلك، كما مر (١).

قال في أضواء البيان : "وأن أكثر أهل الأصول على جواز وقوع الصغائر غير الصغائر الخسة منهم، ولكن جماعة كثيرة من متأخري الأصوليين اختاروا أن ذلك وإن جاز عقلا لم يقع فعلا، وقالوا: إنما جاء في الكتاب والسنة من ذلك أن ما فعلوه بتأويل أو نسيانا أو سهوا أو نحو ذلك" (٢).
أقول : وأما الصغائر غير الخسيصة فالتحقيق جواز وقوعها منهم (٣) بقصد المصلحة الراجحة عندهم في فعلها، حالة كونهم صلوات الله وسلامه عليهم لا يريدون المخالفة ولا يتعمدون الوقوع في المخالفة قطعاً.

وإنما قلنا بجواز وقوعها منهم؛ لتصريح النصوص بوقوع الذنب من بعضهم. وكذلك قلنا: إنهم يقعون فيها من غير إرادة المخالفة؛ لأنهم قدوة، فيستحيل إرادة المخالفة منهم. والله تعالى أعلم.

١ انظر ص ٢٣٢ .

٢ محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٤ ، ص ١١٩ .
٣ قال الشنقيطي في أضواء البيان: "الذي يظهر لنا أنه الصواب في هذه المسألة أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يقع منهم ما يزري بمراتبهم العلية، ومناصبهم السامية ، ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصا فيهم صلوات الله وسلامه عليهم ، ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة والإخلاص وصدق الإنابة إلى الله، حتى ينالوا بذلك أعلى درجاتهم فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئا من ذلك، ومما يوضح هذا قوله تعالى { وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى }، فانظر أي أثر يبقى للعصيان والغي بعد توبة الله عليه، واجتبه أي اصطفاؤه إياه، وهدايته له، ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب ذلك الزلة والعلم عند الله تعالى ". انظر محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٤ ، ص ١١٩ .

المبحث الثاني :ردود ابن حزم على من تكلم في بعض الأنبياء

المطلب الأول : رد ابن حزم على من تكلم في آدم عليه السلام .

ذكر ابن حزم أن من نسب إلى آدم عليه السلام المعصية احتج بحجتين:

الحجة الأولى:أكله من الشجرة مع نهي الله له.

و احتجوا بقول الله عز وجل [وعصى آدم ربه فغوى](١).

وقوله تعالى: [ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين](٢) .

قالوا: فقربها آدم فكان من الظالمين، وقد عصى وغوى.

وقوله تعالى: [فتاب عليه](٣).

^١ سورة طه الآية ١٢١ .

^٢ سورة البقرة الآية ٣٥ .

قالوا: والمتاب لا يكون إلا من ذنب.

وقوله تعالى: [فأزلهما الشيطان] (٢).

قالوا: وإزال الشيطان معصية (٣).

رد ابن حزم عليهم بأن آدم عليه السلام لم يعتمد المعصية عندما أكل من الشجرة، بل وقع في المعصية وهو لا يدري أنه عاص بذلك الأكل ؛ لأنه حينما أكل من الشجرة كان ناسياً عهد الله إليه في أن إبليس عدو له بنص القرآن [فنسي ولم نجد له عزماً] (٤)، ولأنه كان متأولاً للخير، حيث ظن أنه مطيع لله تعالى، أو أن ذلك مباح له، والذي حمله على ذلك الظن هو حلف إبليس حين قال [ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور] (٥) [٦]

ولقد أصل ابن حزم لما ذهب إليه بما خلاصته: أن من تأول الأمر الوارد عليه بأنه ليس على معنى الإيجاب ولا على التحريم، لكن إما على الندب إن كان بلفظ الأمر، أو الكراهية إن كان بلفظ النهي، فإنه يقيناً لم يقع في المعصية عمداً، فهذا هو ما يقع فيه الأنبياء ، يقصدون الخير فيقعون في خلاف مراد الله (٧). قال: " وهذا شيء يقع فيه العلماء والفقهاء الأفاضل

١ سورة طه الآية ١٢٢.

٢ سورة البقرة الآية ٣٥.

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٩.

٤ سورة طه الآية ١١٥.

٥ سورة الأعراف الآية ٢١.

٦ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠.

٧ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠.

كثيراً، وهذا هو الذي يقع من الأنبياء عليهم السلام، ويؤاخذون به إذا وقع منهم، وعلى هذا السبيل أكل آدم من الشجرة" (١).

وبمثل ذلك أجاب ابن حزم على من قال: إن آدم عليه السلام قرب الشجرة فكان من الظالمين. فوضح رحمه الله أن الظلم المذكور في الآية هو "من الظلم الذي يقع بغير قصد، وليس معصية، لا الظلم الذي هو القصد إلى المعصية، وهو يدري أنها معصية" (٢)، إذ أن هذا النوع من الظلم هو نتيجة لوضع الأمر أو النهي في موضع الذنب أو الكراهية.

ولا نستغرب من ابن حزم وصفه الظلم الذي وقع من آدم عليه السلام بأنه ليس معصية؛ ذلك لأن الإمام ابن حزم رحمه الله فيما يبدو لي، لا ينصرف ذهنه عند ذكر المعصية إلا إلى مخالفة أمر الله قصداً وعمداً؛ لذلك فهو لا يعد ما يقع من الأنبياء سهواً. فيقع مخالفاً لمراد الله . معصية حقيقة، بل تسمية ما يقع منهم على هذا الوجه عند ابن حزم هي تسمية من حيث اللغة (٣) فإن "كل خلاف لأمر أمر، فصورته صورة المعصية، فيسمى معصية لذلك وغواية، إلا أنه منه ما يكون عن عمد وذكر فهذه معصية علي الحقيقة؛ لأن فاعلها قاصد إلى المعصية، وهو يدري أنها معصية، وهذا هو الذي نزهنا عنه الأنبياء عليهم السلام، ومنه ما يكون عن قصد إلى خلاف ما أمر به وهو يتأول في ذلك الخير ولا يدري أنه عاص بذلك" (٤).

ونظير ذلك تسمية الله عز وجل لمن قتل غيره عن طريق الخطأ قاتلاً، كما سمى العامد تماماً مع أن "المخطئ لم يتعمد معصية، وجعل في الخطأ في

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

ذلك كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن عجز عن الرقبة وهو لم يتعمد ذنباً^(١).

ونظير ذلك أيضاً كما يرى ابن حزم رحمه الله تسمية الله عز وجل لآدم عليه السلام عاصياً، مع أن آدم عليه السلام لم يتعمد المعصية.

وغاية ابن حزم رحمه الله هو تنزيه آدم عليه السلام وجميع الأنبياء عن تعمد المعصية، ولا شك أن هذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه .

وما أجمل هذه العبارات التي رمى بها الإمام ابن حزم إلى تنزيه نبي الله آدم عليه السلام عن تعمد المعصية أيما تنزيه، حيث قال: "ولا سلامة ولا براءة من القصد إلى المعصية ولا أبعد من الجراءة علي الذنوب أعظم من حال من ظن أن أحداً لا يحلف حانثاً وهكذا فعل آدم عليه السلام، فإنه إنما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن، ومتاولاً وقاصداً إلى الخير"^(٢).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠ .

الحجة الثانية: قول الله تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (١).

يرى ابن حزم أنه لا يجوز نسبة الشرك والكفر لآدم عليه السلام أخذاً بظاهر هذه الآية، وأن من نسب إليه ذلك، كُفّر كفراً مجرداً بلا خلاف من أحد من الأمة، وأن "هذا الذي نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة، من تأليف من لا دين له ولا حياء، لم يصح سندها قط، وإنما نزلت في المشركين على ظاهرها" (٢).

ثم وضح أنه على افتراض أنها نزلت في آدم وهذا لا يصح أصلاً لما كانت فيه للمخالف حجة؛ لأنه كان يكون الشرك أو الشركاء المذكورون في الآية حينئذ على غير الشرك الذي هو الكفر، لكن بمعنى أنهما جعلاً مع توكلهما شركة من حفظه" (٣)، بمعنى العوذة أو التميمة أو نحو هذا.

بل جزم أن هذا الفعل نظير فعل يعقوب عليه السلام حينما قال لبنيه [يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة (٤)]، فقد أمرهم بذلك خوفاً عليهم من أن تصيبهم العين، أو أن يتعرض لهم عدو، مع اعتقاده الجازم بأنه لن يغني عنهم من الله شيئاً (٥)، كما حكى الله سبحانه ذلك على لسانه في القرآن بقوله: "وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله

١ سورة الأعراف ١٩٠.

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٠.

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١١.

٤ سورة يوسف الآية ٦٧.

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١١.

عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون^(١)". وإنما حمل آدم عليه السلام على ذلك طبيعته البشرية، التي ترجو سلامة من تحب، فتأخذ بالأسباب مع التوكل على الله^(٢).

قال رحمه الله وهو يضرب مثلاً آخر: "كما كان عليه السلام يحب الفأل الحسن، فكان يكون على هذا معنى الشرك والشركاء، أن يكون عوذة أو تميمة أو نحو هذا، فكيف ولم تنزل الآية قط إلا في الكفار، لا في آدم عليه السلام؟"^(٣).

^١ سورة يوسف الآية ٦٧.

^٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١١، ١٢.

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٢.

المطلب الثاني : رد ابن حزم على من تكلم في نوح عليه السلام

ذكر ابن حزم أن من تكلم في نوح عليه السلام احتج بقول الله عز وجل لنوح: [فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين]^١.

^١ سورة هود الآية ٤٦ .

قال أبو محمد: "وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن نوحاً عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة، وهذا لو فعله أي أحد منا لكان مأجوراً.

ولم يسأل نوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله، فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين، فتندم عليه السلام من ذلك ونزع، وليس ها هنا عمد للمعصية ألبتة" (١).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٣.

المطلب الثالث : رد ابن حزم على من تكلم في إبراهيم عليه السلام

ذكر ابن حزم أن الذين تكلموا في إبراهيم عليه السلام قالوا :

١ . إنه كذب ثلاث كذبات:

الأولى : قال إذ نظر في النجوم: [إني سقيم](^١).

الثانية: قال حين رأى الكوكب والشمس والقمر : [هذا ربي](^٢).

الثالثة : قال في سارة: هذه أختي وقال في الأصنام إذ كسرها :[يل فعله كبيرهم هذا](^٣)(^٤).

٢ . إنه طلب رؤية إحياء الموتى(^٥) فقال تعالى: [أولم تؤمن](^٦) فأجاب

إبراهيم عليه السلام :[بلى ولكن ليطمئن قلبي](^٧).

٣ . إنه كان يستغفر لأبيه ، وكان أبوه كافراً(^٨).

^١ سورة الصافات الآية ٨٩.

^٢ سورة الأنعام الآيات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨.

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥ .

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥ .

^٦ سورة البقرة الآية ٢٦٠.

^٧ سورة البقرة الآية ٢٦٠.

رد ابن حزم

يرى الإمام ابن حزم أن هذا كله ليس على ما ظنوه بل هو حجة له^(٢)،
وصدق في ذلك .

وقد بدأ في الرد قائلاً: "أما الحديث أنه عليه السلام كذب ثلاث كذبات
فليس كل كذب معصية، بل منه ما يكون طاعة لله عز وجل، وفرضا
واجبا، يعصى من تركه"^(٣).

واستدل على جواز الكذب في مواضع بوجوه:

الوجه الأول: . أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب للذي يصلح بين
الناس فينمي خيرا، وقد أباح عليه السلام كذلك كذب الرجل لامرأته فيما
يستجلب به مودتها، وكذلك أباح عليه السلام الكذب في الحرب^(٤).

الوجه الثاني: . أجمع أهل الاسلام على أن انسانا لو سمع مظلوما قد استتر
عنده يدعو على سلطان قد ظلمه وطلبه ليقبله بغير حق، ويأخذ ماله غصباً
، فإنه لا يجوز له أن يخبر بما سمعه من ذلك المظلوم، ولا أن يدل على
موضعه، بل إن كنتم ما سمع، وأنكر أن يكون سمعه، أو أنه يعرف

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥، ١٨ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥ .

موضعه، أو موضع ماله، فإنه محسن مأجور مطيع لله عز وجل، وأنه إن صدق السلطان فأخبره بما سمعه من المظلوم، وبموضعه، وموضع ماله، كان فاسقاً عاصياً لله عز وجل، فاعل كبيرة، مذموماً تماماً^(١).

الوجه الثالث : . أباح ديننا الكذب في إظهار الكفر في النقية^(٢).

قال الإمام ابن حزم رحمه الله: " وكل ما روى عن إبراهيم عليه السلام في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة، لا في الكذب الذي نهى عنه"^(٣). ثم أخذ يفصل في الإجابة:

١- فذكر ان قوله عن سارة هي أختي، حق وصدق لأنها هي أخته من وجهين:

الوجه الأول : قال الله تعالى: [إنما المؤمنون أخوة]^(٤).

وقال عليه السلام [لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه]^(٥).

والوجه الثاني: القرابة وأنها من قومه ومن مستجيبه. واستدل على أخوة القرابة بقوله عز وجل: [وإلى مدين أخاهم شعيباً]^(٦).

قال: " فمن عد هذا كذباً مذموماً من إبراهيم عليه السلام فليعده كذباً من ربه عز وجل، وهذا كفر مجرد فصح أنه عليه السلام صادق في قوله في ساره إنها أختي"^(٧).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٥، ١٦.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٦.

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٦.

^٤ سورة الحجرات الآية ١٠.

^٥ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى

ينكح أو يدع، ج ٥، ص ١٩٧٥ (٤٨٤٨).

^٦ سورة الأعراف الآية ٨٥.

٢ . وذهب ابن حزم رحمه الله إلى أن قول إبراهيم عليه السلام :إني سقيم لما نظر نظرة في النجوم ليس كذباً.

قال: "ولسنا ننكر أن تكون النجوم دلائل على الصحة والمرض وبعض ما يحدث في العالم، كدلالة البرق على تغول^(٢) البحر، وكدلالة الرعد على تولد الكمأة^(٣)، وكتولد المد والجزر على طلوع القمر وغروبه، وانحداره وارتفاعه، وامتلائه ونقصه، وإنما المنكر قول من قال: إن الكواكب هي الفاعلة المدبرة لذلك دون الله تعالى، أو مشتركة معه، فهذا كفر من قائله"^(٤).

٣ . ووضح ابن حزم رحمه الله أن قول إبراهيم عليه السلام [بل فعله كبيرهم هذا]^(٥)، إنما هو تقريع لقومه وتوبيخ لهم، كما قال تعالى: [ذق نك أنت العزيز الكريم]^(٦) وهو في الحقيقة مهان ذليل معذب في النار^(٧).

قال رحمه الله تعالى: " فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر، وعلى ظن المعذب في نفسه في الدنيا أنه عزيز كريم. ولم يقل إبراهيم عليه السلام هذا على أنه محقق؛ لأن كبيرهم فعله، إذ

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٦ .

^٢ تغول البحر أي : تلونه قال في تاج العروس "والتَّغُولُ : التَّلَوْنُ" انظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٣٠ ، ص ١٣٢ ، وربما يكون المقصود بتغول البحر هنا : سعته ، والله أعلم ، انظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٣٠ ، ص ١٣٣ .

^٣ الكمء هو شيء أبيض من شحم ينبت من الأرض، والمفرد منه كمأة، انظر محمد مرتضى: تاج العروس ، ج ١، ص ٤٠٨ .

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٦ .

^٥ سورة الأنبياء الآية ٦٣ .

^٦ سورة الدخان الآية ٤٩ .

^٧ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧ .

الكذب إنما هو الأخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه قصد إلى تحقيق ذلك" (١).

٤- ويجزم ابن حزم رحمه الله بأن قول إبراهيم عليه السلام إذ رأى الشمس والقمر [هذا ربي] (٢)، إنما هو على سبيل المناظرة.

وهذا بخلاف ما ظنه بعضهم من أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك محققاً، ووضح ابن حزم أن هذا الظن خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال، لأمرين:

الأول: من المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز ويتكلم بمثل هذا الكلام، وكأن إبراهيم عليه السلام لم ير قط شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، رغم وصوله هذا السن !

الثاني: أن الله قال: [ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين] (٣).

قال ابن حزم رحمه الله: "فمحال أن يكون من أتاه الله رشده من قبل، يدخل في عقله أن الكواكب ربه، أو أن الشمس ربه من أجل أنها أكبر قرصاً من القمر، هذا ما لا يظنه إلا مجنون العقل" (٤).

ثم بدأ ابن حزم يوضح الصحيح من ذلك، بما خلاصته أن إبراهيم عليه السلام إنما قال ذلك موبخاً لقومه كما قال لهم نحو ذلك في الكبير من

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧.

٢ سورة الأنعام الآيات ٧٦، ٧٧، ٧٨.

٣ سورة الأنبياء الآية ٥١.

٤ سورة الأنعام الآيات ٧٦، ٧٧، ٧٨.

الأصنام ولا فرق، وإنما فعل ذلك " لأنهم كانوا على دين الصابئين، يعبدون الكواكب، ويصورون الأصنام على صورها وأسمائها في هياكلهم، ويعدون لها الأعياد، ويذبحون لها الذبائح، ويقربون لها القرب، والقرايين، والدخن، ويقولون: إنها تعقل وتدبر وتضر وتنفع ويقيمون لكل كوكب منها شريعة محدودة^(١)، فوبخهم الخليل عليه السلام على ذلك، وبين لهم أنهم مخطئون وأنها مدبرة تنتقل في الأماكن^(٢).

ونفى الإمام ابن حزم أن يكون الخليل عليه السلام أشرك قط بربه، أو شك في أن الفلك بكل ما فيه مخلوق، واستدل على هذا بأن الله تعالى " لم يعاتبه على شيء مما ذكر، ولا عنفه على ذلك، بل صدقه تعالى بقوله: [وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء]^(٣)"^(٤).

بل جزم رحمه الله تعالى بأن إبراهيم الخليل عليه السلام بمناظرته لقومه هذه، وافق مراد الله عز وجل بما قال من ذلك وبما فعل بخلاف ما وقع لأدم وغيره^(٥).

٥ . بيّن ابن حزم رحمه الله أن إبراهيم عليه السلام عندما قال: [رب أرني كيف تحيي الموتى]^(٦). لم يخالجه أدنى شك في الإيمان بذلك، وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط ويعتبر بذلك.

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧.

^٣ سورة الأنعام الآية ٨٣ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧.

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٧.

^٦ سورة البقرة الآية ١٦٢.

وكذلك عندما قال الله له عليه السلام: [أولم تؤمن] (١)، لم يقرره ربنا عز وجل وهو يشك في إيمانه، كيف يكون ذلك وهو "عبده وخليله ورسوله عليه السلام، تعالى الله عن ذلك، ولكن تقرير الإيمان في قلبه، وأن لم ير كيفية إحياء الموتى، فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه مؤمن مصدق، وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط ويعتبر بذلك" (٢). ودل على ذلك دلالة قاطعة قوله عليه السلام: [بلى ولكن ليطمئن قلبي] (٣).

وجعل ابن حزم رحمه الله تعالى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم [نحن أحق بالشك من إبراهيم] حجة له، ومعناه كما يرى ابن حزم: "لو كان الكلام من إبراهيم عليه السلام شكاً لكان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم عليه السلام أحق بالشك، فإذا كان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم غير شاك فإبراهيم عليه السلام أبعد من الشك" (٤).

ويرى ابن حزم أن الشك في إبراهيم عليه السلام باطل من وجوه:

الوجه الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [نحن أحق بالشك من إبراهيم] (٥).

قال ابن حزم: "فمن ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم شك قط في قدرة ربه عز وجل على إحياء الموتى فقد كفر" (٦).

^١ سورة البقرة الآية ١٦٢.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

^٣ سورة البقرة الآية ١٦٢.

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

^٥ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل {ونبئهم عن ضيف إبراهيم} وقوله {ولكن ليطمئن قلبي}، ج ٣، ص ١٢٣٣، (٣١٩٢).

^٦ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

الوجه الثاني: من نسب إلى إبراهيم الخليل عليه السلام الشك "فقد نسب إليه الكفر ومن كفر نبيا فقد كفر" (١).

الوجه الثالث: إن كان ذلك شكا من إبراهيم عليه السلام وكنا نحن أحق بالشك منه "فنحن إذا شكناك جاحدون كفار، وهذا كلام نعلم والحمد لله بطلانه من أنفسنا، بل نحن ولله الحمد مؤمنون مصدقون بالله تعالى وقدرته على كل شيء" (٢).

الوجه الرابع: نحن لا نشك في قدرة الله مع أننا لم نشاهد ما شاهده إبراهيم عليه السلام من قدرة الله، لذا فالشك عنه صلى الله عليه وسلم أبعد (٣).

٦. قال ابن حزم رحمه الله: "وذكروا قول إبراهيم عليه السلام لأبيه واستغفاره له وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأنه لم يكن نهى عن ذلك. قال: تعالى: [فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه]، فأثنى الله تعالى عليه بذلك، فصح أن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان مدة حياته، راجيا إيمانه، فلما مات كافرا تبرأ منه، ولم يستغفر له بعدها" (٤).

المطلب الرابع: رد ابن حزم على من تكلم في لوط عليه السلام

ذكر ابن حزم أن من تكلموا في لوط عليه السلام ذكروا شيئين:

الأول: قول الله تعالى في لوط عليه السلام أنه قال: [لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد] (٥).

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨.

٥ سورة هود الآية ٨٠.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد^(١)]، فظنوا أن هذا القول منه عليه السلام إنكار على لوط عليه السلام.

الثاني: قول الله تعالى في لوط عليه السلام أنه قال: [هؤلاء بناتي هن أظهر لكم^(٢)]. فظنوا أنهم دعاهم إلى الفاحشة!

رد ابن حزم رحمه الله على شبهتهم الأولى:

وضح ابن حزم رحمه الله تعالى أن قول لوط عليه السلام: [لو أن لي بكم قوة أو ءاوى إلى ركن شديد^(٣)]، ليس مخالفا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [رحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد^(٤)]، قال: "بل كلا القولين منهما عليهما السلام حق متفق عليه؛ لأن لوطا عليه السلام إنما أراد منعه عاجلة، يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش من قرابة، أو عشيرة، أو اتباع مؤمنين.

وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة وأشد ركن^(٥).

وبين رحمه الله أن هذا هو نظير قوله تعالى: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض^(٦)]. وأن طلب لوط عليه السلام هذا هو نظير طلب

^١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل { ونبئهم عن ضيف إبراهيم } وقوله { ولكن ليطمئن قلبي }، ج ٣، ص ١٢٣٣، (٣١٩٢). ولفظه عند البخاري "ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد".

^٢ سورة هود الآية ٧٨.

^٣ سورة هود الآية ٨٠.

^٤ سبق تخريجه في هذه الصفحة.

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٩.

^٦ سورة البقرة الآية ٢٥١.

رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام الله تعالى .

قال: " فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام؟ تالله ما أنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما أخبر عليه السلام أن لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة ولم يكن لوط علم بذلك" (١). وبرهن الإمام ابن حزم بطلان هذا القول بأمرين آخرين :

أولهما: أن من اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد نسب إلى نبي من الأنبياء الكفر، وهذا كفر من قائله .

ثانيهما: من الممتنع أن يظن لوط هذا الظن برب أراه المعجزات وهو دائماً يدعو إليه (٢).

رد ابن حزم رحمه الله على شبهتهم الثانية:

قال ابن حزم رحمه الله: "وأما قوله عليه السلام هؤلاء بناتي هن وإنما أراد الترويج والوطء في المكان المباح فصح ما قلنا إذ من المحال أن يدعوهم إلى منكر وهو ينهاهم عن المنكر" (٣).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٠ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٠ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٠ .

المطلب الخامس : كلام ابن حزم على إخوة يوسف عليه السلام .

يرى الإمام ابن حزم أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا أنبياء " ولا جاء قط في أنهم أنبياء نص، لا من قرآن ولا من سنة صحيحة ولا من إجماع ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم (١) "، وعليه فلا حجة لمن احتج بفعلهم ليوسف عليه السلام، وبيعهم له، وكذبهم لأبيهم .

وللإمام ابن حزم حجج في جزمه بعدم نبوة أخوة يوسف عليه السلام:

الأولى: عدم وجود النص كما تقدم.

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: "ولا يحل لمسلم أن يُدْخَلَ في الأنبياء من لم يات نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبياً، وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم" (٢).

الثانية: أفعالهم تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم فكيف أن يكونوا أنبياء؟

الثالثة: قول الله تعالى حاكياً عن الرسول أخيه يوسف عليه السلام أنه قال لهم: أنتم شر مكاناً

قال ابن حزم: "ولا يجوز ألْبَتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين، إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شراً مكاناً" (١).

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢١ .

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢١ .

رد ابن حزم عل من أثبت نبوة إخوة يوسف عليه السلام بما روى زيد بن أرقم رضي الله عنه

وقد رد ابن حزم على من استدلل لنبوة إخوة يوسف عليه السلام بما روى عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم، حيث روي عنه أنه قال: "إنما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله عليه وسلم، وأولاد الأنبياء أنبياء" (٢)، حيث وصف ابن حزم هذا القول: بأنه غفلة شديدة وزلة من هذا العالم رضي الله عنه، وذلك من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل علي صحتها.

وثانيها: أنه لو كان أولاد الأنبياء أنبياء، لأمكن أن ينبأ إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهد، كما نبىء عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحي الحكم صبيّاً، فعلى هذا القول: لعل إبراهيم كان نبياً وقد عاش عامين غير شهرين وحاشا لله من هذا.

وثالثها: لو كان أولاد الانبياء انبياء، لكان ابن نوح . على نبينا نوح السلام . نبياً، وليس كذلك بل هو كافر مسخوط عليه بنص القرآن قد عمل عملاً غير صالح قال تعالى : { إنه عمل غير صالح } (٣).

ورابعها: لو كان أولاد الأنبياء أنبياء، لوجب أن يكون جميع أهل الارض أنبياء؛ لأن آدم عليه السلام نبي، فيكون جميع اليهود بل نحن كذلك

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢١ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢١ .

^٣ سورة هود الآية ٤٦ .

أنبياء؛ لأن الكل من ذرية آدم عليه السلام. وفي هذا من البطلان والكفر ما لا خفاء به^(١).

قال ابو محمد ابن حزم رحمه الله: "ولعل من جهل مرتين يقول عنا هذا ينكر نبوة اخوة يوسف ويثبت نبوة نبي المجوس ونبوة ام موسى وام عيسى وام اسحاق عليهم السلام"^(٢).

ثم قال رحمه الله كلاماً خلاصته: أنه أثبت نبوة ام موسى وام عيسى وام اسحاق عليهم السلام لأن "القرآن قد جاء بمخاطبة الملائكة لبعضهن بالوحي وإلى بعض منهن عن الله عز وجل بالأنباء بما يكون قبل أن يكون وهذه النبوة نفسها التي لا نبوة غيرها فصحت نبوتهن بنص القرآن"^(٣).

وكذلك نبوة نبي المجوس ثابتة عنده بالسنة. قال رحمه الله: "وأما نبي المجوس فقد صح أنهم اهل كتاب يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية منهم ولم يبح الله تعالى له أخذ الجزية إلا من أهل الكتاب فقط"^(٤).

وينكر ابن حزم رحمه الله نبوة إخوة يوسف عليه السلام، لوجوه ذكرناها في بداية هذا المطلب في مقدمتها عدم وجود النص في ذلك^(٥).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٢ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٢ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٢ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٢ .

^٥ انظر ص ٢٧٥ .

المطلب السادس: رد ابن حزم على من تكلم في يوسف عليه السلام.

ذكر ابن حزم أن الذين تكلموا في يوسف عليه السلام ذكروا أشياء منها^(١):

١ . أخذ يوسف عليه السلام أخاه بنيامين، وإيحاشه أباه يعقوب عليه السلام منه.

٢ . وأن يوسف عليه السلام أقام مدة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره، وهو يعلم ما يقاسي به من الوجد عليه، فلم يفعل وليس بينه وبين أبيه إلا عشر ليال.

٣ . وأن يوسف عليه السلام أدخل صواع الملك في وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائراخوته ثم أمر من هتف أيتها العير إنكم لسارقون وهم لم يسرقوا شيئاً.

٤ . وأن يوسف عليه السلام همَّ بامرأة فرعون وذلك في قول الله تعالى: [ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه]^(٢).

٥ . وأن يوسف عليه السلام خدم فرعون.

٦ . وأن يوسف عليه السلام قال للذي كان معه في السجن: [اذكرني عند ربك]^(٣).

قال أبو محمد: " وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه "^(٤).

ثم بدأ في الرد مبيناً:

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٥ .

^٢ سورة يوسف الآية ٢٤ .

^٣ سورة يوسف الآية ٤٢ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٥ .

١ . أن أخذ يوسف عليه السلام أخاه، وإيحاشه أباه منه ، إنما كان يقصد الرفق بأخيه، وليعود إخوته إليه، وخوفاً من عدم العودة بأخيه لو مضوا به، فهم في مملكة أخرى، و لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك. وليكون ذلك سبباً للاجتماع ، وجمع الشمل.

قال: "ولا سبيل إلى أن يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أوتي العلم والمعرفة بالتأويل إلا أحسن الوجوه، وليس مع من خالفنا نص بخلاف ما ذكرنا، ولا يحل أن يظن بمسلم فاضل عقوق أبيه، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم؟" (١).

٢ . وأن ظن إقامة يوسف عليه السلام مدة يقدر فيها علي أن يعرف أباه خبره ولم يفعل ، هو جهل شديد ممن ظن هذا؛ لأن يعقوب عليه السلام بعيد في أرض كنعان مع أمة أخرى، لهم دين آخر، فلم يكن عند يوسف عليه السلام علم بعد فراقه أبيه بما فعل أبوه، ولا هل هو حي أو ميت أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبئه بفعلهم به، ولا وجد أحدا يثق به فيرسله إليه (٢).

ودليل رفق يوسف عليه السلام بأبيه ، ورغبته في اجتماع شملهم، أنه حين أمكنه ذلك لم يؤخره، واستجلب أباه وأهله أجمعين مستغلاً ضرورة الناس إليه، وانقيادهم له، للجوع الذي كان عم الأرض، وامتيارهم من عنده. فانتظر وعد ربه تعالى الذي وعده حين ألقوه في الجب، فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى في رؤياه التي هي حق (٣) .

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٥ .

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٥، ٢٦ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٦ .

٣ . وأن قول يوسف لإخوته :{إنكم لسارقون} قد صدق فيه عليه السلام؛ لأنهم سرقوه من أبيه، وباعوه، ولم يقل عليه السلام أنكم سرقت صواع الملك، وإنما قال:{نفقد صواع الملك}، وهو في ذلك صادق؛ لأنه كان غير واجد له في ذلك الحين، فكان فاقداً له بلا شك^(١).

٤ . وأن خدمته عليه السلام لفرعون، فإنما خدمة تقية، وفي حق الاستنقاذ الله تعالى أهل الأرض بحسن تدبيره، وعدله، وحياة النفوس بذلك، وبواستطها توصل إلى الاجتماع بأبيه ، إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك، ولاشك في أن ذلك كان مباحاً في شريعة يوسف عليه السلام، بخلاف شريعتنا^(٢) قال الله تعالى:{لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً}^(٣).

٥ . وأن سجود أبيه لم يكن محظوراً في شريعتهما، بل كان فعلاً حسناً وتحقيقاً لرؤياه الصادقة، ولم يكن سجود عبادة ولا تذلل وإنما كان سجود تحية وكرامة فقط بلا شك^(٤) .

٦ . وأن قوله عليه السلام للذي كان معه في السجن [اذكرني عند ربك]^(٥)، غاية ما فيه الرغبة في الانطلاق من السجن، وليس في ذلك محذور ، بل كل مسجون يرغب في ذلك^(٦) .

وأيضاً ليس في قوله[اذكرني عند ربك]^(٧) دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل، لكنه رغب هذا الذي كان معه في السجن في فعل الخير

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٦ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٦ ، ٢٧ .

^٣ سورة المائدة الآية ٤٨ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ .

^٥ سورة يوسف الآية ٤٢ .

^٦ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ .

^٧ سورة يوسف الآية ٤٢ .

وحضه عليه. قال الإمام ابن حزم: "وهذا فرض من وجهين: أحدهما وجوب السعي في كف الظلم عنه، والثاني دعاؤه إلى الخير والحسنات" (١).

وأيضاً قوله تعالى [فأنساه الشيطان ذكر ربه] (٢) ليس فيه ما يدل على نسبة النقص أو الذنب إلى يوسف عليه السلام، فالهاء في أنساه ضمير راجع إلى الفتى الذي كان معه في السجن أي أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يُذكر سيده أمر يوسف عليه السلام. ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام (٣).

واستدل ابن حزم رحمه الله تعالى على هذا الفهم بقوله تعالى: [وادكر بعد أمة] (٤) قال: "فصح يقيناً أن المذكور بعد أمة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر، وحتى لو صح أن الضمير من أنساه راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان في ذلك نقص ولا ذنب إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء" (٥).

٧. وأن قول الله تعالى: [ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] (٦)، ليس كما ظن من لم ينعم النظر حتى قال بعض المتأخرين: إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة!

ومعاذ الله أن يظن برجل من صالحى المسلمين أو مستورهم أن يفعل هذا، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ .

٢ سورة يوسف الآية ٤٢ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ .

٤ سورة يوسف الآية ٤٥ .

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ .

٦ سورة يوسف الآية ٢٤ .

قال ابن حزم: "فإن قيل: إن هذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق جيدة الإسناد، قلنا: نعم ولا حجة في قول أحد إلا فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط. والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك، إذ إنما أخذه عمن لا يدري من هو. ولا شك في أنه شيء سمعه فذكره؛ لأنه رضي الله عنه لم يحضر ذلك، ولا ذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به" (١).

ثم وضح أن معنى الآية لا يعدو أن يكون أحد وجهين:

الوجه الأول : أنه هم بالإيقاع بها وضربها، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه، استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجدى عليه، وأظهر لبراءته، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد (٢).

واستشهد لهذا المعنى بقوله تعالى: [وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه] (٣).

والوجه الثاني: أن الكلام تم عند قوله [ولقد همت به] (٤).

ثم ابتداء تعالى خبراً آخر فقال: [وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] (٥).

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: "وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل، وبهذا نقول" (٦).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٧ ، ٢٨ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٨ .

^٣ سورة غافر الآية ٥ .

^٤ سورة يوسف الآية ٢٤ .

^٥ سورة يوسف الآية ٢٤ .

ثم ساق ابن حزم حديثاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قالها يوسف عليه السلام قال له جبريل يا يوسف اذكر همك فقال يوسف: [وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء] (٢). ثم قال: "فليس في هذا الحديث على معنى من المعاني تحقيق الهم بالفاحشة، ولكنه فيه أنه همّ بأمر ما، وهذا حق كما قلنا فسقط هذا الاعتراض، وصح الوجه الأول والثاني معاً، إلا أن الهم بالفاحشة باطل مقطوع على كل حال، وصح أن ذلك الهم هو ضرب سيئته، وهي خيانة لسيده إذ هم بضرب امرأته. وبرهان ربه ها هنا هو النبوة، فلولا النبوة وعصمة الله عز وجل إياه، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة وهذا لا شك فيه" (٣).

أقول: يفهم من كلام الإمام ابن حزم رحمه الله أن قوله سبحانه : { وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي } (٤) من كلام يوسف عليه السلام، والصحيح أنه من كلام امرأة العزيز، كما يدل على ذلك سياق آيات القرآن دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر ذلك السياق حيث قال تعالى : { وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٨ .

^٢ سورة يوسف الآية ٥٣ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٨ .

^٤ سورة يوسف الآية ٥٣ .

ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرئ نفسي
إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم {١}.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الآيات السابقة: "فهذا كله كلام
امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع
كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته - كما قالت امرأة العزيز :
{ ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب } {٢} أي لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن
كنت في حال شهوده راودته - فحينئذ : { وقال الملك ائتوني به أستخلصه
لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين } {٣}، وقد قال كثير من
المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو
قول في غاية الفساد ولا دليل عليه بل الأدلة تدل على نقيضه" {٤}.

هذا، وقد وضع الإمام ابن حزم أن تفسير الهم بفاحشة الزنا باطل لوجوه:

الوجه الأول: أن هذا المقام الذي نسبوه ليوسف عليه السلام ، لا يفعله
صالح فضلاً عن نبي مقدس كيوسف عليه السلام، وقد خشي النبي صلى
الله عليه وسلم الهلاك على من ظن به ذلك الظن {٥}، إذ قال للأنصاريين
حين لقيهما : [هذه صفة] {٦}.

١ سورة يوسف الآيات ٥٠-٥٣.

٢ سورة يوسف الآية ٥٢.

٣ سورة يوسف الآية ٥٤.

٤ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٨.

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٩.

٦ البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه،

ج ٢، ص ٧١٧، (١٩٣٣).

الوجه الثاني : قول الله تعالى: [كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء] (١)، صريح في أن يوسف عليه السلام ما هم بالزنا. وبيان ذلك في ما قاله ابن حزم: "فنسأل من خالفنا عن الهم بالزنا بسوء هو أم غير سوء؟ فلا بد من أنه سوء، ولو قال: إنه ليس بسوء لعاند الإجماع، فإذ هو سوء وقد صرف عنه السوء فقد صرف عنه الهم بيقين" (٢).

الوجه الثالث : لما قالت امرأة العزيز [ما جزاء من أراد بأهلك سوءا] (٣)، أنكر يوسف عليه السلام ذلك، فشهد الصادق المصدق وهو من كان في المهد: [وإن كان قيمه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين] (٤). ومعلوم بشهادة القرآن أن يوسف عليه السلام هو الصادق، إذ أن قيمه قد من دبر. قال ابن حزم رحمه الله تعالى: "فصح أنها كذبت ، وإذ كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً فما هم بالزنا قط، ولو أراد بها الزنا لكانت من الصادقين، وهذا بين جداً" (٥).

الوجه الرابع : قوله تعالى عن يوسف عليه السلام إنه قال: [وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن] (٦). قال الإمام ابن حزم: "فصح عنه أنه قط لم يصب إليها" (٧).

وهذا الجزم من الإمام ابن حزم بأن الهم المذكور في الآية: [وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] (١) ليس هو الهم بالزنا ، هو الصحيح ، واستدلّاه بقوله

^١ سورة يوسف ٢٤.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٩.

^٣ سورة يوسف ٢٥.

^٤ سورة يوسف ٢٧.

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٩.

^٦ سورة يوسف الآيات ٣٣ ، ٣٤.

^٧ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٢٩.

تعالى: [كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء] (١) في غاية الروعة؛ لأنه صريح في عدم صدور الزنا . الذي هو سوء وفحشاء منه عليه السلام.

قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: "وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنباً فهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال : { كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين } فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء" (٢).

وأما كون الهم الذي صدر من يوسف عليه السلام هو الهم بضرب امرأة العزيز كما جزم بذلك الإمام ابن حزم ، فهذا ينقصه الدليل ولا دليل، صحيح أن هذا هو أحد الاحتمالات في تفسير الهم ، لكن الأصح أن يُترك تفسيره مبهماً كما جاء في القرآن، مع الجزم بأن الهم ليس هماً بزناً، سيما وأن الهم اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد: "الهم همان : هم خطرات وهم إصرار" (٣).

والذي نجزم به أن : "يوسف صلى الله عليه وسلم هم هماً تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام مقتضى للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لإنصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها" (٤).

١ سورة يوسف ٢٤ .

٢ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٦ .

٣ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٧ .

٤ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٧ .

والدليل من القرآن قوله تعالى : { إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون } (١).

ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: [قال الله عز وجل إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها حسنة] (٢).

و كذلك نجزم بأن نسبة الفاحشة إلى يوسف عليه السلام مأخوذ من اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : "أما ما ينقل : من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا صلى الله عليه وسلم حرفاً واحداً" (٣).

^١ سورة الأعراف الآية ١٠١.

^٢ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، ج ١، ص ١١٧، (١٢٨).

^٣ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٧.

المطلب السابع : رد ابن حزم على من تكلم في موسى وأمه عليهما السلام

يتضمن هذا المطلب الرد على من تكلم في موسى وأمه عليهما السلام.

وإنما اهتم ابن حزم رحمه الله بالرد على من تكلم في أم موسى عليها السلام، لاعتقاده بأنها نبيهة.

أولاً: رد ابن حزم على من تكلم في أم موسى عليها السلام

لم يفصل الإمام ابن حزم الشبهة التي وُجِّهَتْ لأم موسى عليها السلام، حيث قال: "ذكروا قول الله تعالى: وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها" (١)، ثم بدأ في الرد مباشرة. لكن يستشف من رده أن من تكلم في أم موسى عليها السلام أثبت همها بموسى عليه السلام وانشغالها بأمره. وأن من أثبت همها بموسى عليه السلام استدل لهذا بقوله تعالى: [إن كادت لتبدي به] (٢)، وبقوله تعالى: [وقالت لأخته قصيه] (٣). بالرغم من أن الله ضمن لها رده.

وقد وضع ابن حزم رحمه الله تعالى في بداية رده أن قول الله تعالى: [وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها] (٤) معناه: فارغاً من الهم بموسى جملة، لأن الله عز وجل قد وعدها برده إليها إذ قال لها تعالى: [إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين] (٥). قال: "فمن الباطل المحض أن يكون الله تعالى ضمن لها رده إليها ثم يصبح قلبها مشغولاً بالهم بأمره هذا ما لا يظن بذی عقل أصلاً وإنما معنى قوله تعالى: [إن كادت لتبدي به] أي سرورا بما أتاه الله عز وجل من الفضل" (٦).

وكذلك قول أم موسى لأخته [قصيه]، إنما هو يؤكد ثقتها بوعده الله تعالى برده إليها، إذ كان الغرض من ذلك أن ترى أخته "كيفية قدرة الله تعالى في

^١ سورة القصص الآية ١٠.

^٢ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣١.

^٣ سورة القصص الآية ١٠.

^٤ سورة القصص الآية ١١.

^٥ سورة القصص الآية ١٠.

^٦ سورة القصص الآية ٧.

^٧ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣١.

تخليصه من يدي فرعون عدوه بعد وقوعه فيهما وليتم بها ما وعدها الله تعالى من رده إليها" (١).

ثانياً: رد ابن حزم على من تكلم في موسى عليه السلام

ذكر الإمام ابن حزم أربع شبه للذين تكلموا في موسى عليه السلام قالوا:

الشبهة الأولى: عصى موسى عليه السلام ربه عندما أخذ برأس أخيه هارون عليه السلام وشعره ولحيته يجره إليه، مع أن أخاه نبي مثله وأسن منه ولا ذنب له (٢)، حتى قال له أخوه كما جاء في القرآن: [يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي] (٣).

رد ابن حزم

رد الإمام ابن حزم بأن الأمر ليس كما ظنوا، وإنما هو أحد وجهين:

أحدهما: أن موسى عليه السلام لم يأخذ بشعر أخيه قط، إذ ليس ذلك في الآية أصلاً، وإنما أخذ برأس أخيه ليقبل بوجهه عليه، ويسمع عتابه له، إذ تأخر عن اتباعه إذ رآهم ضلوا. وأي زيادة على الآية فهي كذب على الله تعالى (٤).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣١.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣١.

^٣ سورة طه الآية ٩٤.

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣١، ٣٢.

قال: " لكن هارون عليه السلام خشي بادرة من موسى عليه السلام، وسطوة أو رآه قد اشتد غضبه، فأراد توقيفه بهذا الكلام عما تخوفه منه، وليس في هذه الآية ما يوجب غير ما قلناه ولا أنه مد يده إلى أخيه أصلاً" (١).

والثاني: أن موسى عليه السلام رأى استحقاق هارون عليه السلام النكير؛ لتأخره عن لحاقه إذ رآهم ضلوا، فأخذ برأسه منكراً عليه، وكان غضبه لربه عز وجل، قاصداً بذلك رضا تعالى (٢).

قال: " ولسنا نبعد هذا من الأنبياء عليهم السلام، وإنما نبعد القصد إلى المعصية وهم يعلمون أنها معصية، وهذا هو معني ما ذكره الله تعالى عن ابراهيم خليله صلى الله عليه وسلم إذ قال [والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين] (٣)، وقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم [ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر] (٤) إنما الخطيئة المذكورة والذنوب المغفورة ما وقع بنسيان أو بقصد إلى الله تعالى إرادة الخير فلم يوافق رضا الله عز وجل بذلك فقط " (٥).

الشبهة الثانية: قال موسى عليه السلام للخضر عليه السلام: [أقتلت نفساً زكية بغير نفس] (٦). فأنكر موسى عليه السلام الشيء وهو لا يعلمه، وقد كان أخذ عليه العهد أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً (٧).

رد ابن حزم

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢ .

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢ .

٣ سورة الشعراء الآية ٨٢ .

٤ سورة الفتح الآية ٢ .

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢ .

٦ سورة الكهف ٧٤ .

٧ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢ .

وضح الإمام ابن حزم ألا حجة لهم في هذا لوجهين:

الوجه الأول: أن ذلك كان على سبيل النسيان، وقد طلب موسى عليه السلام قبل من الخضر عليه السلام ألا يؤاخذه بما بالنسيان حيث قال: [لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً] (١).

الوجه الثاني: أن موسى عليه السلام تكلم على ظاهر الأمر، فظن أن الغلام زكى لا ذنب له، لكن كان عند الخضر العلم الجلي بكفر ذلك الغلام واستحقاقه القتل، فليس في هذا مأخذ على موسى عليه السلام لأنه ما قصد بكلامه في ذلك إلا وجه الله تعالى، والرحمة، وإنكار ما لم يعلم وجهه (٢).

الشبهة الثالثة: أن موسى عليه السلام قال: [فعلتها إذا وأنا من الضالين] (٣).

قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى راداً: "وذكروا قول موسى عليه السلام فعلتها إذا وأنا من الضالين فقول صحيح وهو حاله قبل النبوة فإنه كان ضالاً عما اهتدى له بعد النبوة وضلال الغيب عن العلم كما تقول أضللت بعيري لا ضلال القصد إلى الإثم وهكذا قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالاً فهدى أي ضالاً عن المعرفة وبالله تعالى التوفيق" (٤).

قال الشوكاني في فتح القدير: "وقد قيل إن هذا كان قبل النبوة، وقيل كان ذلك قبل بلوغه سن التكليف، وإنه كان إذ ذاك في إثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك

^١ سورة الكهف ٧٣.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢.

^٣ سورة الشعراء الآية ٢٠.

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٢.

أنهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد، فليس بكبيرة؛ لأن الوكزة في الغالب لا تقتل" (١).

الشبهة الرابعة: سأل موسى عليه السلام أمراً عوقب سائلوه من بني إسرائيل قبله وهو رؤية الله عز وجل.

قال الله عز وجل عن بني إسرائيل: [فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم] (٢).

قالوا: وموسى قد سأل ربه مثل ذلك فقال [رب أرني أنظر إليك قال لن تراني] (٣) (٤).

رد ابن حزم

قال أبو محمد وهذا لا حجة لهم فيه لانه خارج على وجهين:

أحدهما: أن موسى عليه السلام سأل ذلك قبل سؤال بني إسرائيل رؤية الله تعالى، وقبل أن يعلم أن سؤال ذلك لا يجوز، فهذا لا مكروه فيه؛ لأنه سأل فضيلة عظيمة أراد بها علو المنزلة عند ربه تعالى.

^١ محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، ج ٤،

ص ١٦٤.

^٢ سورة النساء الآية ١٥٣.

^٣ سورة الأعراف الآية ١٤٣.

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٣.

والثاني: أن بني إسرائيل سألوا ذلك متعنتين وشكاكا في الله عز وجل،
وموسى سأل ذلك على الوجه الحسن الذي ذكرنا آنفا^(١).

المطلب الثامن: رد ابن حزم على من تكلم في يونس عليه السلام

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٣.

ذكر الإمام ابن حزم أن الذين تكلموا في أمر يونس عليه السلام ذكروا في ذلك أربع آيات هي :

الأولى : قول الله تعالى عنه : [وإذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين] (١).

الثانية: قوله تعالى: [فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون] (٢).

الثالثة: قوله تعالى لنبيه عليه السلام: [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم] (٣).

الرابعة: قوله تعالى : [فالتقمه الحوت وهو مليم] (٤).

قال الإمام ابن حزم: "قالوا: ولا ذنب أعظم من المغاضبة لله عز وجل، ومن أكبر ذنبا ممن ظن أن الله لا يقدر عليه؟ وقد أخبر الله تعالى أنه استحق الذم لولا أن تداركه نعمة الله عز وجل، وأنه استحق الملامة، وأنه اقر على نفسه أنه كان من الظالمين، ونهى الله تعالى نبيه أن يكون مثله" (٥).

ونحن نذكر إن شاء الله تلك الشبه تباعاً مع رد ابن حزم عليها.

١ سورة الأنبياء الآية ٨٧.

٢ سورة الصافات الآيتان ١٤٣، ١٤٤.

٣ سورة القلم الآيتان ٤٨، ٤٩.

٤ سورة الصافات الآية ١٤٢.

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٥.

الشبهة الأولى: مغاضبة يونس عليه السلام لربه عز وجل . زعموا . مع ظنه أن الله تعالى لا يقدر عليه، ففسروا قوله تعالى: [فظن أن لن نقدر عليه]^(١)، بالقدرة التي هي ضد العجز، كما يزعمون .

والآية كاملة هي قوله تعالى عنه :[وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين]^(٢).

رد ابن حزم

وضح الإمام ابن حزم أن يونس عليه السلام لم يغضب ربه قط، قال: " ولا قال الله تعالى أنه غاضب ربه، فمن زاد هذه الزيادة، كان قائلا على الله الكذب وزائدا في القرآن ما ليس فيه، هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل، أنه يغضب ربه تعالى، فكيف أن يفعل ذلك نبي من الانبياء؟"^(٣).

قال : "فعلما يقينا أنه إنما غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل فعوقب بذلك وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضا الله عز وجل"^(٤).

ثم وضح أن قوله تعالى [فظن أن لن نقدر عليه]^(٥) ليس علي ما ظنوه من أن يونس عليه السلام ظن عدم قدرة الله عليه في ذلك بعني أنه يعجز عن

^١ سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

^٢ سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٥ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٦ .

^٥ سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

ذلك، فإنه من المعلوم لدى المؤمنين والمتيقن عندهم قدرة الله على كل شيء يعلم هذا عوامهم، فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم؟

وإنما المقصود بقوله تعالى [فظن أن لن نقدر عليه]، أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك^(١).

قال: "ومن المحال المتيقن ان يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه، وهو يرى ان آدميا مثله يقدر عليه، ولا شك في أن من نسب هذا للنبي صلى الله عليه وسلم الفاضل فانه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه، فكيف إلى يونس عليه السلام الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تفضلوني على يونس بن متى]^(٢) فقد بطل ظنهم بلا شك"^(٣). واستدل على صحة ما ذهب إليه من أن معنى قوله [فظن أن لن نقدر عليه أي لن تضيق عليه] هو ظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه بقوله تعالى: [وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه]^(٤) أي ضيق عليه كما هو معلوم.

وأما إقرار يونس صلى الله عليه وسلم على نفسه بالظلم فمن المعلوم أن الظلم هو "وضع الشيء في غير موضعه فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم"^(٥).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٥، ٣٦.

^٢ البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأنبياء، باب وإن يونس لمن المرسلين، ج ٤، ص ١٨٠٨، (٤٥٢٦). ولفظه عند البخاري "ما ينبغي لأحد أن يكون خيرا من يونس بن متى".

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٦.

^٤ سورة الفجر الآية ١٦.

^٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٧.

الشبهة الثانية: أخبر الله تعالى أن يونس عليه السلام استحق الذم لولا أن تداركه نعمة الله عز وجل فقال سبحانه: [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم]^(١).

كما أخبر أنه استحق الذم واللوم ولولا نعمة الله للبت في بطن الحوت إلى يوم يبعثون قال تعالى: [فلولا أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون]^(٢).

رد ابن حزم

قال الإمام ابن حزم: "وأما نهى الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت. فنعم نهاه الله عز وجل عن مغاضبته قومه، وأمره بالصبر على أذاهم، وبالمطالبة لهم. وأما قول الله تعالى أنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التي تداركه بها للبت معاقبا في بطن الحوت فهذا نفس ما قلناه من أن الانبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنونهم خيرا وقربة إلى الله عز وجل إذا لم يوافق مراد ربهم"^(٣).

أقول: ومعلوم أن الله استجاب ليونس عليه السلام حينما دعا قائلاً: [لا إله أنت سبحانك إني كنت من الظالمين]^(٤)، وقبل توبته واستغفاره، بل كان حاله بعد التوبة، أفضل من حاله قبلها.

^١ سورة القلم الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

^٢ سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٦ ، ٣٧ .

^٤ سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن تكلم عن قصة يونس عليه السلام: "والمقصود هنا أن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه، كله مغفور بذله الله به حسنات ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع" (١). إلى أن قال: "والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية والأعمال بخواتيمها" (٢).

المطلب التاسع : رد ابن حزم على من تكلم في داوود عليه السلام

١ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٩ .

٢ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٠، ص ٢٩٩ .

ذكر ابن حزم أن الذين تكلموا في داوود عليه السلام شبهتين

الشبهة الأولى:

أن الخصمين في قوله تعالى: [وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ] (١) كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء (٢)، نبهوا داوود عليه السلام بخطئه في أمر امرأة أوريا.

فمن جوز على داوود عليه السلام الصغيرة دون الكبيرة واعتقد أن الملائكة عرضت، قالوا خطب داوود على خطبة أخيه أوريا ونحو ذلك.

ومن نسب إليه الكبيرة قال إنه عشق امرأة أوريا، فطلب من أوريا أن يطلق زوجته ليتزوجها هو فأبى، فاحتال بالوجوه الكثيرة، حتى قتل أوريا، ومن تلك الحيل التي ذكروها أن داوود عليه السلام أمر أوريا بالخروج إلى الغزو، فقتل فيه، فتزوجها داوود عليه السلام فتم بها المائة (٣). فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة (٤).

يقول الفخر الرازي في تفسيره: "للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال:

أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه.

١ سور ص الآية ٢٠ وسياق القصة يبدأ من هذه الآية وينتهي في الآية ٢٥ من سورة ص.

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩.

٣ ابن خثير، تنزيه الأنبياء ص ٥١، ٥٢.

٤ الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ١٦٥.

وثانيها : دلالتها على الصغيرة وثالثها : بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة" (١).

أقول: ومعاذ الله أن يفعل داوود عليه السلام تلك الكبيرة المذكورة، بل ولا يفعلها صالح من الصالحين، فكيف بنبي الله داوود عليه السلام، بل سياق الآيات يدل على أن الله مدحه في بداية ذكر القصة وعند نهايتها حيث قال سبحانه قبل ابتداء القصة للنبي صلى الله عليه وسلم: [أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ]، ثم قال سبحانه عقب ذكر القصة: [فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ (٢٦)] (٢).

والإمام ابن حزم رحمه الله تعالى نفى هذه القصة من أساسها ، وجزم بأنها من وضع اليهود، ولا شك أن ما قاله هو الحق. لعدم وجود السند، ولمنافاتها لعصمة الملائكة؛ لأن فيها نسبة الكذب إليهم، ولمنافاتها أيضاً لعصمة الأنبياء من الكبائر ومن الوقوع في الفواحش (٣).

ثم وضح رحمه الله تعالى أن الألفاظ الواردة في قصة نبي الله داوود عليه السلام هي على ظاهرها تماماً، قائلاً: "وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك مختصمين في نجاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال أنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر

١ الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦ ، ص ١٦٥.

٢ سورة ص الآية ٢٥ ، ٢٦ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩ .

النساء فقد كذب على الله عز وجل، وقوله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه" (١).

ووجوه الرد التي ذكرها ابن حزم رحمه الله تعالى هي :

الوجه الأول : أن هذه القصة خرافة وضعها اليهود ، فهي دعوى مجردة، لا دليل عليها (٢) .

الوجه الثاني : أن من اعتقد تلك القصة فقد كذب الله عز وجل "لأن الله تعالى يقول:[وهل أتاك نبأ الخصم] (٣)، فقال هو: لم يكونوا قط خصمين ولا بغى بعضهم على بعض ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعمة ولا كان للآخر نعمة واحدة ولا قال له أكفلنيها" (٤).

الوجه الثالث: كل واحد منا ينزه نفسه من تلك القصة، فكيف برسول الله داود صلى الله عليه وسلم؟ (٥)

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: "وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرض زوجها للقتل عمدا ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود صلى الله عليه وسلم؟ الذي أوحى إليه كتابه، وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله عز

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩ .

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩ .

٣ سور ص الآية ٢٠ .

٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩ .

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩ ، ٤٠ .

وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله؟" (١).

ثم وضع الإمام ابن حزم أن استغفار داود عليه السلام وظنه أن الله فتنه، ليس فيه متعلق لمن نسب له هذه القصة أو طعن في عصمته عليه السلام ، فالاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنّب ولا من غير مذنّب. ودليل ذلك قول الله تعالى في الملائكة: [ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم] (٢).

فاستغفار داود عليه السلام وخروره ساجدا ومغفرة الله تعالى له، من المحامد الدالة على فضله. وداود عليه السلام ظن "أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه، فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر الله تعالى له هذا الظن، إذ لم يكن ما أتاه الله تعالى من ذلك فتنة" (٣).

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٣٩، ٤٠.

^٢ سورة غافر الآية ٧.

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٠.

المطلب العاشر : رد ابن حزم على من تكلم في سليمان عليه السلام

ذكر ابن حزم رحمه الله تعالى أن الذين تكلموا في سليمان عليه السلام
ذكروا آيتين وحديث.

أما الآيتان فهما:

قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: [ولقد فتنا سليمان وألقينا على
كرسيه جسداً ثم أناب] (١).

وقوله سبحانه عنه أيضاً: [إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت
بالحجاب ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق] (٢).

وأما الحديث فهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الثابت
عنه صلى الله عليه وسلم: [أن سليمان عليه السلام قال لأطوفن الليلة علي
كذا وكذا امرأة كل امرأة منهن تلد فارسا يقاتل في سبيل الله ولم يقل إن شاء
الله] (٣).

رد ابن حزم رحمه الله تعالى على من تكلم في سليمان عليه السلام

١ سورة ص الآية ٣٤.

٢ سورة ص الآيتان ٢٢، ٢٣.

٣ البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد،
لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله"، ج ٣، ص ١٠٣٨، (٢٦٦٤). ولفظه عند
البخاري "لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله".

أولاً: رده على من تأول قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: [ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب] (١) بتأويلات خاطئة وساقطة.

لم يذكر ابن حزم تأويل الطاعنين لفتنة الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام، المذكورة في قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام [ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب] (٢)، فضرب عن ذلك صفحاً، وشرع مباشرة في تفسير معنى الفتنة، ففسر فتنة الله لسليمان عليه السلام باختباره حتى ظهر فضله فقط. قال: "وما عدا هذا فخرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم" (٣).

ووضح ابن حزم رحمه الله تعالى أن معنى قوله تعالى: [ولقد فتننا سليمان] (٤) أي أتيناه من الملك ما اخترنا به طاعته" (٥)، فظهر فضله.

واستشهد لهذا المعنى بآيتين هما:

قوله تعالى مصدقا لموسى عليه السلام في قوله تعالى: [إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء] (٦).

وقوله تعالى: [ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] (٧).

١ سورة ص الآية ٣٤.

٢ سورة ص الآية ٣٤.

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤١.

٤ سورة ص الآية ٣٤.

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤١.

٦ سورة الأعراف الآية ٥٥.

٧ سورة العنكبوت الآيات ١، ٢، ٣.

قال " فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط ،وما عدا هذا فخرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم" (١).

ما مضى هو تفسيره لمعنى الفتنة، أما الجسد الملقى على كرسيه فهو يؤمن بأن الله تعالى قد أصاب الله به ما أراد، ولم يثبت عنده نص صحيح في القرآن أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بتفسير هذا الجسد ما هو؟ لكنه قال: " إلا أننا لا نشك ألبتة في بطلان قول من قال: إنه كان جنياً تصور بصورته بل نقطع على أنه كذب، والله تعالى لا يهتك ستر رسوله صلى الله عليه وسلم هذا الهتك، وكذلك نبعد قول من قال: إنه كان ولدا له أرسله إلى السحاب ليربيه، فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربي ابنه بغير ما طبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام، وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة لم يصح اسنادها قط" (٢).

ثانياً: رده على من تأول قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: [إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردها علي فطفق مسحاً بالسوق] (٣)، بأنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة.

جزم الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى بأن هذه خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة، وأنها من اختراع زنديق بلا شك للأسباب التالية:

السبب الأول: معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها.

السبب الثاني: إتلاف مال منتفع به بلا معنى.

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤١ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤١، ٤٢ .

^٣ سورة ص الآية ٣٣ .

السبب الثالث: نسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل.

السبب الرابع: معاقبة الخيل على ذنبه . وهو اشتغاله بها عن الصلاة بزعمهم . لا على ذنبها.

قال: " وهذا أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين فكيف بنبي مرسل؟" (١).

ثم شرع في تفسير الآية موضحاً أن الآية هي على ظاهرها: " وهو أنه عليه السلام أخبر أنه أحب حب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب أو حتى توارت تلك الصافنات الجياد بحجابها ثم أمر بردها فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده برا بها واکراماً لها هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة" (٢).

ثالثاً: رده على من ذكر الحديث الثابت من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سليمان عليه السلام قال لا طوفن الليلة علي كذا وكذا امرأة كل امرأة منهن تلد فارساً يقاتل في سبيل الله.

قالوا: ولم يقل إن شاء الله.

قال أبو محمد " وهذا ما لا حجة لهم فيه فإن من قصد تكثير المؤمنين المجاهدين في سبيل الله عز و جل فقد أحسن، ولا يجوز أن يظن به أنه يجهل أن ذلك لا يكون إلا أن يشاء الله عز و جل، وقد جاء في نص

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٢.

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٢.

الحديث المذكور أنه إنما ترك إن شاء الله نسياناً فأؤخذ بالنسيان في ذلك،
وقد قصد الخير، وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين" (١).

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٢.

المطلب الحادي عشر: رد ابن حزم على من تكلم في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ذكر ابن حزم أن الذين تكلموا في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذكروا شبهاً، فذكر ابن حزم رحمه الله تعالى تلك الشبه ثم رد عليها.

الشبهة الأولى: ذكروا قول الله تعالى: [لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم]^(١). فذكروا ما جاء من قوله عليه السلام لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة^(٢) وما روي عنه عليه السلام: لو نزل عذاب ما نجى منه إلا عمر^(٣).

^١ سورة الأنفال الآية ٦٨.

^٢ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ج ٣، ص ١٣٨٥، (١٧٦٣).

^٣ لم أعثر عليه إلا في كتب التفاسير، وبدون سند، انظر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٠، ص ٤٨، على سبيل المثال، وقد حكم الإمام ابن حزم على هذا الأثر بالضعف بحسب ما اطلع عليه، وعلة ضعفه عند ابن حزم هو أن رواية هذا الأثر تفرد بها عكرمة بن عمار اليمامي، وهو ممن قد صح عليه وضع الحديث، أو سوء الحفظ أو الخطأ الذي لا يجوز معهما الرواية عنه. انظر ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٧.

قالوا: مال عليه السلام إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه فقبل الفداء وترك قتل الأسرى ببدر؛ وأما عمر رضي الله عنه فقد أشار بقتلهم؛ لذلك إن نجا من العذاب أحد فكان يكون عمر فقط رضي الله عنه^(١).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح الإمام ابن حزم أن الخطاب في قوله تعالى: [لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم]^(٢) هو خطاب للمسلمين، لا لرسول الله صلى الله عليه و سلم، وذلك حين تنازعوا في غنائم بدر، فكانوا هم المذنبين المنشقين على النبي صلى الله عليه و سلم . واستشهد الإمام ابن حزم لذلك بآيات هي: قوله تعالى [يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم]^(٣).

وقوله تعالى في سورة الأنفال نفسها: [يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون]^(٤).

وقوله تعالى [تريدون عرض الدينار والله يريد الآخرة]^(٥)

وقد رد الله عز و جل الأمر في الأنفال المأخوذة يومئذ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم^(٦).

وأما الخبر المذكور الذي فيه [لو نزل عذاب ما نجا منه إلا عمر]^(٧) فقد قال فيه ابن حزم رحمه الله تعالى: "فهذا خبر لا يصح لأن المنفرد بروايته

^١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٥، ٤٦ .

^٢ سورة الأنفال الآية ٦٨ .

^٣ سورة الأنفال الآية الأولى .

^٤ سورة الأنفال الآية ٦ .

^٥ سورة الأنفال الآية ٦٧ .

^٦ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٧ .

عكرمة بن عمار اليمامي، وهو ممن قد صح عليه وضع الحديث أو سوء الحفظ أو الخطأ الذي لا يجوز معهما الرواية عنه، ثم لو صح لكان القول فيه كما قلنا من أنه قصد الخير بذلك^(٢).

الشبهة الثانية: وذكروا قوله تعالى: [عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى]^(٣).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

ذكر ابن حزم رحمه الله تعالى أن الآيات السابقة إنما نزلت لما جلس إلي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عظيم من عظماء قريش ورجا النبي صلى الله عليه وسلم اسلامه، وعلم عليه السلام أنه لو أسلم ذلك الكافر من عظماء قريش لأسلم باسلامه ناس كثير، فطمع النبي صلى الله عليه وسلم أن يظهر الله باسلامه الدين، مع علمه صلى الله عليه وسلم أن هذا الأعمى . وهو عبدالله ابن أم مكتوم الذي كان يسأله عن أشياء من أمور الدين . لا يفوته، ليقينه بأنه هو حاضر معه ولن ينصرف عنه، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته، وهذا غاية النظر للدين والاجتهاد في نصرته في ظاهر الأمر، بل هذا هو نهاية التقرب إلى الله الذي لو فعله اليوم منا فاعل لأجر. فعاتبه الله عز و جل على ذلك إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل، البر

^١ تقدم الكلام عليه ص ٢٨٦، حاشية رقم ٣.

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٧ .

^٣ سورة عبس الآيات من الأولى إلى العاشرة. وانظر إلى إيراد الشبهة في ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٥.

التقي، فهو لم يتعمد مخالفة الله لكنه وقع عن غير قصد في خلاف ما أراده الله، ولا فرق بين هذا وبين سهوه عليه السلام من اثنتين ومن ثلاث، وقيامه من اثنتين ولا سبيل إلى أن يفعل من ذلك شيئاً متعمداً أصلاً، نعم ولا يفعل ذلك بعمدٍ إنسانٌ منا فيه خير^(١).

الشبهة الثالثة: ذكروا الحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في [والنجم إذا هوى]^(٢). وذكروا تلك الزيادة المفتراة التي تشبه من وضعها من قولهم: وإنما لهي الغرائيق العلي وأن شفاعتها لترتجى^(٣).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح الإمام ابن حزم أن هذا الحديث كذب لم يصح قط في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن تلك الزيادة المفتراة تشبه من وضعها .

قال الإمام ابن حزم: "أما الحديث الذي فيه [وأنهن الغرائيق العلى وأن شفاعتها لترتجى] فكذب بحت موضوع لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد"^(٤).

الشبهة الرابعة: وذكروا قول الله تعالى [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم]^(٥)

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٧، ٤٨. وانظر ص .

^٢ سورة النجم الآية الأولى.

^٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٧ .

^٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٨ .

^٥ سورة الحج الآية ٥٢. وانظر إلى إيراد الشبهة في ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٥ .

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح ابن حزم أن قوله تعالى: [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان] (١)، ليس لهم فيه حجة وعلل ذلك بأن "الاماني الواقعة في النفس لا معنى لها وقد تمنى النبي صلى الله عليه وسلم اسلام عمه أبي طالب ولم يرد الله عز و جل كون ذلك فهذه الأماني التي ذكرها الله عز و جل لا سواها وحاشا لله أن يتمنى نبي معصية وبالله تعالى التوفيق" (٢). قال: "وهذا الذي قلنا هو ظاهر الآية دون مزيد تكلف ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق" (٣).

الشبهة الخامسة: وذكروا قوله تعالى: [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله] (٤).

قالوا: امتسك الوحي عنه عليه السلام لتركه الاستثناء إذ سألته اليهود عن الروح، وعن ذي القرنين، وأصحاب الكهف (٥).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

١ سورة الحج الآية ٥٢

٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٨ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٨ .

٤ سورة الكهف ٢٣ ، ٢٤ .

٥ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٥ .

قال الإمام ابن حزم: "وأما قوله [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت](^١) فقد كفى الله عز و جل الكلام في ذلك ببيانه في آخر الآية أن ذلك كان نسيانا فعوتب عليه السلام في ذلك"(^٢).

الشبهة السادسة: وذكروا قوله تعالى: [وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه](^٣).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح الإمام ابن حزم أن الأمر الذي أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم والمشار إليه في قوله تعالى: [وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه](^٤) هو زواجه من أمنا زينب رضي الله عنها، وهو أمر مباح له فعله، ومباح له تركه، ومباح له طيه، ومباح له إظهاره، وإنما خشي النبي صلى الله عليه وسلم الناس في ذلك خوف أن يقولوا قولاً ويظنوا ظناً فيهلكوا كما قال عليه السلام للأنصارين [أنها صفة](^٥) فاستعظما ذلك فأخبرهما النبي صلى الله عليه وسلم أنه إنما أخشى أن يلقي الشيطان في قلوبهما شيئاً، فنبت ألا معصية فيما ذكر أصلاً(^٦).

^١ سورة الكهف ٢٣ ، ٢٤ .

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٨ .

^٣ سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

^٤ سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

^٥ البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ج ٢ ، ص ٧١٧، (١٩٣٣). ولفظ البخاري: "هذه صفة".

^٦ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٨ ، ٤٩ .

قال الإمام ابن حزم: "وهذا الذي خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم بظن يظنونه به عليه السلام هو الذي يحققه هؤلاء المخدولون المخالفون لنا في هذا الباب من نسبتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعدد المعاصي فهلكت أديانهم وضلوا ونعوذ بالله من الخذلان وكان مراد الله عز و جل أن يبدي ما في نفسه لما كان سلف في علمه من السعادة لأما زينب رضي الله عنها" (١).

الشبهة السابعة: ذكروا قوله تعالى [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر] (٢).

قالوا: فإن لم يكن له ذنب فماذا غفر له؟ وبأي شيء امتن الله عليه في ذلك؟ (٣)

رد ابن حزم رحمه الله عليها

قال الإمام ابن حزم: "أما قول الله عز و جل ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقد بينا أن ذنوب الأنبياء عليهم السلام ليست إلا ما وقع بنسيان أو بقصد الى ما يظنون خيراً مما لا يوافقون مراد الله تعالى منهم فهذان الوجهان هما اللذان غفر الله عز و جل له" (٤).

١ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٩ .

٢ سورة الفتح الآية ٢ .

٣ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٦ .

٤ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٦ .

الشبهة الثامنة: وذكروا قوله صلى الله عليه وسلم: [لو دعيت إلى ما دعي إليه يوسف لأجبت] (١).

ولم يذكر الإمام ابن حزم تأويلهم للآية ، ولكن شرع في تفسير المقصود من عبارة [لو دعيت] الواردة في الحديث (٢).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح الإمام ابن حزم أن المقصود من عبارة [لو دعيت] الواردة في الحديث، إنما هو إذا هو صلى الله عليه وسلم في مكان يوسف عليه السلام ودعي إلى الخروج من السجن لأجاب تلك الدعوة، كل ذلك ليوضح النبي صلى الله عليه وسلم صبر يوسف عليه السلام، إذ دعي يوسف عليه السلام فلم يجب إلى الخروج حتى قال للرسول ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم. واستدل الإمام ابن حزم لهذا الفهم الذي فهمه، من نص عبارات الحديث نفسه حيث فيها [ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف عليه السلام ثم دعيت لأجبت الداعي]..

قال رحمه الله: "فأمسك عن الخروج من السجن وقد دعي إلى الخروج عنه، حتى اعترف النسوة بذنبن وبراءته وتيقن بذلك من كان شك فيه، فأخبر محمد صلى الله عليه وسلم - أنه لو دعي إلى الخروج من السجن لأجاب، وهذا التفسير منصوص في الحديث نفسه كما ذكرنا من كلامه عليه السلام

١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل { ونبئهم عن ضيف إبراهيم } وقوله { ولكن ليطمئن قلبي }، ج ٣، ص ١٢٣٣، (٣١٩٢) . ولفظه عند البخاري " ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي".

٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٦ .

[ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف عليه السلام ثم دعيت لاجبت الداعي]
أو كلاماً هذا معناه^(١).

الشبهة التاسعة: ذكروا قول الله تعالى [حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا]^(٢) بتخفيف الذال في (كذبوا).

قالوا : ظن الرسل أن الله كذبهم^(٣).

رد ابن حزم رحمه الله عليها

وضح الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى أن معنى الآية ليس على ما ظنه هؤلاء الجاهل، وإنما معناه أن الرسل عليهم السلام ظنوا بمن وعدهم النصر من أقوامهم أنهم كذبوا فيما وعدوهم من نصرهم^(٤).

قال: "ومن المحال البين أن يدخل في عقل من له أدنى رفق أن الله تعالى يكذب! فكيف بصفوة الله تعالى من خلقه وأتمهم علماً وأعرفهم بالله عز وجل؟ ومن نسب هذا إلى نبي فقد نسب إليه الكفر، ومن أجاز إلى نبي الكفر فهو الكافر المرتد بلا شك"^(٥). قال: "والذي قلنا هو ظاهر الآية وليس فيها أن الله تعالى كذبهم حاشا لله من هذا"^(٦).

الشبهة العاشرة: ذكروا قول الله تعالى [فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك]^(٧).

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٦.

^٢ سورة يوسف الآية ١١٠.

^٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٠.

^٤ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٠.

^٥ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٠.

^٦ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥١.

^٧ سورة يونس الآية ٩٤.

قالوا: شك رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في صحة الوحي إليه^(١).

أقول : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

رد ابن حزم رحمه الله عليها

نفى الإمام ابن حزم أن يكون هذا الاعتراض من مسلم ألبتة ، وإنما ذكر هذا الاعتراض من ذكره من أهل الكتاب قال:"ولا يمكن ألبتة أن يكون مسلم يظن أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان شاكا في صحة الوحي إليه"^(٢).

وهذا رأي قوي وصائب من ابن حزم رحمه الله .

ثم قال رحمه الله تعالى:" ولنا في هذه الآية رسالة مشهورة. وجملة حل هذا الشك أن: (إن) في هذه الآية المذكورة بمعنى (ما) التي للجد بمعنى {وما كنت في شك مما أنزلنا إليك} ثم أمره أن يسأل أهل الكتاب تقريراً لهم على أنهم يعلمون أنه نبي مرسل مذكور عندهم في التوراة والإنجيل وبالله تعالى التوفيق"^(٣).

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥١ .

^٢ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥١ .

^٣ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥١ .

المطلب الثاني عشر: شبهتان فيهما الطعن في عصمة الأنبياء مع رد ابن حزم عليهما

الشبهة الأولى: ذكروا قوله تعالى: [واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين](^١).

لم يذكر ابن حزم شبهتهم ابتداءً، ولكن يستشف من رد عليهم أنهم ادعوا أن من نزلت فيه هذه الآيات كان نبياً، آتاه الله آياته وحياً نزل عليه فانسلخ منها، فجوزوا بتأويلهم الفاسد انسلاخ الأنبياء عن آيات الله وطعنوا في عصمتهم.

^١ سورة الأعراف الآية ١٧٥.

رد ابن حزم عليهم

قال أبو محمد: "وهذا ما لا حجة لهم فيه لأنه ليس في نص الآية ولا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أن هذا المذكور كان نبيا وقد يكون انباء الله تعالى لهذا المذكور آياته أنه أرسل إليه رسولا بآياته كما فعل بفرعون وغيره فانسلخ منها بالتكذيب فكان من الغاوين وإذا صح أن نبياً لا يعصي الله عز و جل تعمداً فمن المحال أن يعاقبه الله تعالى على ما لا يفعل ولا عقوبة أعظم من الحط عن النبوة ولا يجوز أن يعاقب بذلك نبي ألبتة لأنه لا يكون منه ما يستحق به هذا العقاب وبالله تعالى التوفيق فصح يقينا أن هذا المنسلخ لم يكن قط نبياً"^(١).

الشبهة الثانية: ذكروا قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: [أن ما من أحد إلا من ألم بذنب أو كاد إلا يحيى بن زكريا] ^(٢) أو كلاماً هذا معناه^(٣).

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٣ .

^٢ (أبو يعلى) أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي : مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ج ٤ ، ص ٤١٨ ، (٢٥٤٤) . وانظر (أحمد) أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني : مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة - مصر، ج ١، ص ٢٥٤، (٢٢٩٤) . كما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مواضع أخرى من مسنده، انظر ج ١ ، ص ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٢٠ .

ونصه في مسند أبي يعلى "حدثنا أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" . ولفظه في مسند أحمد بن حنبل ج ١، ص ٢٥٤

قال أبو محمد: "وهذا صحيح، وليس خلافا لقولنا، إذ قد بينا أن الأنبياء عليهم السلام وقع منهم النسيان وقصد الشيء يظنونه قربة إلى الله تعالى، فأخبر عليه السلام أنه لم ينج من هذا أحد إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام، فيقول: من هذا إن يحيى لم ينس شيئاً واجبا عليه قط، ولا فعل إلا ما وافق فيه مراد ربه عز و جل" (٢).

أقول: رد ابن حزم هذا على فرض صحة الحديث، لكن الحديث ضعيف.

المبحث الثالث: التفاضل بين الخلق.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب لأول: ترتيب الخلق بحسب الأفضل.

"ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أوهم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى عليه السلام" وأيضاً في سنده على بن زيد بن جدعان، ويوسف بن مهران.

قال محقق كتاب الفصل: "الحديث ذكر في مسند أبي يعلى الموصلي بسند عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال { ما من أحد إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا } . في سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، ويوسف بن مهران وهو مختلف فيه".

أقول: أما على بن زيد اسمه على بن زيد بن عبدالله بن زهير أبي مليكة بن جدعان، فقد قال عنه البخاري، وأبو حاتم: لا يحتج به. وقال أحمد: ضعيف. انظر شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: ميزان الإعتدال في نقد الرجال، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م، ج ٥، ص ١٥٦، ١٥٧. وأما يوسف بن مهران فقد قال الميموني، عن أحمد: لا يعرف، ولا أعرف أحداً روى عنه إلا ابن جدعان. وقال أبو داود: وقال شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن ماهر: وإنما ذا يوسف ابن مهران - يعني أن شعبة وهم. وقال أبو زرعة: ثقة. انظر شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: ميزان الإعتدال في نقد الرجال، ج ٧، ص ٣٠٨. وعليه فالحديث ضعيف.

^١ انظر ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٣.

^٢ ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٤٣.

المطلب الثاني: هل الملائكة أفضل أم الأنبياء؟

المطلب الثالث: الأقوال الباطلة في ترتيب الخلق بحسب الأفضل ورد ابن حزم عليها ويتضمن ذلك الرد على من قال بتفضيل النبي على الولي.

المطلب الأول: ترتيب الخلق بحسب الأفضل.

الكلام على ترتيب الخلق لابد أن يسبقه كلام على الفضل والمفاضلة في نظري، وهذا يقودنا إلى التنقيب عن رأي ابن حزم في معنى الفضل، وعليه فسيكون كلامي في هذا المطلب في مسألتين:

المسألة الأولى: المفاضلة كما يراها ابن حزم.

المسألة الثانية: ترتيب الخلق بحسب الأفضل كما يراه ابن حزم.

وأبدأ في التفصيل فأقول:

المسألة الأولى: المفاضلة كما يراها ابن حزم.

المفاضلة في اللغة: هي المقارنة بين شيئين أو جهتين بتغليب وإثبات الفضل لأحدهما على الآخر بتقديمه عليه، ففيها معنى الغلبة^(١) قال في الصحاح: "الْفَضْلُ وَالْفَضِيلَةُ: خلاف النقص والنقيصة. والإفضال: الإحسان. ورجلٌ مُفضِّلٌ وامرأةٌ مُفضَّلةٌ على قومها، إذا كانت ذات فضلٍ سمحةً.

^١ انظر د. محمد بن عبدالرحمن أبو سيف الشظيفي : مباحث المفاضلة في العقيدة ، دار ابن القيم ، السعودية، دار ابن عفان، مصر، ط ١ ،

ثم قال :وفاصلتهُ فَفَضَّلْتُهُ، إذا غلبته بالفضل" (١) .

ومن معاني الفضل: الزيادة ، قال في التعاريف: "الفضل ابتداء إحسان بلا علة، وقال الراغب: الزيادة على الاقتصاد، ومنه محمود كفضل العلم والحلم، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون" (٢).

ومن معاني الفضل: الشرف (٣).

والفاضل : "هو الزائد على غيره في خصلة من خصال الخير" (٤).

والأفضل عند الإمام ابن حزم هو الأعلى درجة في الفضل . قال الإمام ابن حزم : "وَلَوْ جَارَ أَنْ يَكُونَ الْأَفْضَلُ أَنْقَصَ دَرَجَةً لَبَطَلَ الْفَضْلُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنَى وَلَا رَغَبٌ فِيهِ رَاغِبٌ، وَلَيْسَ لِلْفَضْلِ مَعْنَى إِلَّا أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْأَرْفَعِ فِي الدُّنْيَا وَتَرْفِيعِ مَنْزِلَتِهِ فِي الْجَنَّةِ" (٥).

ويرى الإمام ابن حزم أن الفضل: "ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما فضل اختصاص من الله عز وجل بلا عمل وفضل مجازاة من الله تعالى بعمل" (٦). ثم وضع رحمه الله تعالى أن فضل الاختصاص دون عمل يشترك فيه جميع المخلوقين من الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق والجمادات والأعراض وأتى بالأمثلة لفضل الاختصاص بلا عمل، فذكر أن

١ د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ١٣ ، نقلاً عن الجوهرى اسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، ط ٣، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ج ٥، ص ١٧٩١.

٢ محمد عبد الرؤوف المناوي : التوقيف على مهمات التعاريف، ج ١، ٥٥٩. وانظر أبو هلال العسكري معجم الفروق اللغوية ، تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي، ط ١، ١٤١٢ هـ ، ج ١، ص ٣٩٥ .

٣ انظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣٠، ص ١٧٢.

٤ أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية ج ١، ص ٣٩٥ .

٥ ابن حزم : المحلى ج ١، ص ٤٤.

٦ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٣.

منه فضل الملائكة والأنبياء على سائر الخلق، وفضل ناقة صالح عليه السلام على سائر النوق، وفضل ذبيحة إبراهيم عليه السلام على سائر الذبائح، وفضل مكة على سائر البلاد. وأما فضل المجازاة بالعمل فبين رحمه الله أنه لا يكون ألبة إلا للحي الناطق من الملائكة والإنس والجن^(١).

ونفى ابن حزم أن تكون القرابة هي أحد وجوه الفضل، واستدل على صحة رأيه هذا بأن أبا لهب في النار مع أنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢)، وهو المقصود بقوله تعالى: [سيصلى ناراً ذات لهب]^(٣)، وغير ذلك من الأدلة القوية والكثيرة التي نوافقه فيها.

وقد حصر الإمام ابن حزم وجوه الفضل في سبعة أوجه لا ثامن لها وهي:

الأول: المائية وهي عين العمل وذاته بأن تكون الفروض من أعمال الفاضل موفاة كلها، ويكون المفضل قد ضيع بعض فروضه وله نوافل، أو أن يستويا في توفية الفروض ويعملا نوافل زائدة، إلا أن نوافل الفاضل أفضل من نوافل المفضل من حيث الذات كالجهاد والصوم، فلا شك أن من جاهد أفضل، أو تكون المفاضلة بنفس العمل كمن اجتهد فصادف الحق فإنه أفضل ممن اجتهد ولم يصادف الحق مع أن كليهما بذل وسعه في الاجتهاد^(٤).

الثاني: الكمية وهي العرض بأن يقصد الفاضل بعمله وجه الله تعالى، لا يمزج به شيئاً ألبة، ويكون المفضل مساوياً للفاضل في جميع عمله إلا أنه

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

^٣ سورة المسد الآية ٣ .

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

ربما مزج بعمله شيئاً من حب البر في الدنيا، وأن يستدفع بذلك الأذى عن نفسه، وربما مزجه بشيء من الرياء^(١).

الثالث: الكيفية: بأن يوفي الفاضل عمله جميع حقوقه ورتبه لا منتقاصاً ولا متزياداً، وينتقص المفضول بعض رتب ذلك العمل وسنته وإن لم يعطل منه فرضاً، أو أن يصفى الفاضل عمله من الكبائر ويأتى المفضول ببعض الكبائر^(٢).

الرابع: الكم وهو أن يستوي الفاضل والمفضول في أداء الفرض ويفوق الفاضل المفضول بكثرة عدد النوافل^(٣).

الخامس: الزمان فمن عمل في صدر الإسلام أو في عام المجاعة أو في وقت نازلة بالمسلمين أفضل ممن عمل غيره بعد قوة الإسلام وفي زمن رخاء وأمن^(٤). ولذلك فمن عمل في صدر الإسلام من الصحابة أفضل ممن عمل من الصحابة بعد ذلك حتى لو كان العمل هو ذات العمل، وكذلك عمل الصحابي لا يوازيه عمل التابعي مهما عمل لفضل الصحبة وشرف زمنها^(٥). والعمل في ليلة القدر أفضل من العمل في غيرها من الليالي لقوله تعالى: [ليلة القدر خير من ألف شهر]^(٦).

السادس: المكان: فمن عمل في المكان الفاضل أفضل ممن عمل في غير ذلك وإن تساوى العملان، فالصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

^٥ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

^٦ سورة القدر الآية ٣ .

غيره كما هو معلوم، والصيام في بلد العدو وفي الجهاد أفضل من الصيام في غير مكان الجهاد^(١).

السابع: الإضافة: فركعة من نبي أو ركعة معه، أو صدقة من نبي أو صدقة معه، أو ذكر منه أو ذكر معه، وسائر أعمال البر منه أو معه، فقليل من ذلك أفضل من كثير الأعمال بعده ، يبين ذلك قول الله عز و جل [لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى] ^(٢)، وإخباره عليه السلام أن أحدهما لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ نصف مد من أحد من الصحابة رضي الله عنهم^(٣).

لكن الصحيح أن وجوه الفضل لا حصر لها؛ ولذلك "يخطئ من يحصر أسباب التفضيل في أمور محدودة لا تخرج عنها كما هو مذهب الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين حين حصروا أسباب التفاضل في أربعة مواطن^(٤) : الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة"^(٥).

وأتفق مع من يقول: إنه يمكننا الوصول إلى أصول أسباب التفاضل إذا قمنا بحصر ما يقع فيه التفاضل وتحديد ما يقع به التفاضل^(٦). وتقصيل ذلك في الآتي...

أما الأشياء التي يقع فيها التفاضل فهي:

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .
^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
^٤ انظر د. محمد بن عبدالرحمن : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٢ .
^٥ انظر د. محمد بن عبدالرحمن : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٢ .
^٦ انظر د. محمد بن عبدالرحمن : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٣ ، ٢٤ .

١ . يقع التفاضل فيما فيه حياة كالتفاضل بين البشر والملائكة ، وفيما ليس فيه حياة كالتفاضل بين الأمكنة والأزمنة.

٢ . يقع التفاضل في الذوات والأعراض ، فمثال الأول كفضل ذات آدم على غيره فيما فيه حياة، وكفضل العرش على غيره فيما لا حياة فيه .

ومثال الثاني وهو التفاضل في الأعراض كفضل العلم على الجهل في الإنسان ، وكفضل العمل في المسجد على غيره من الأمكنة ، وكفضل العمل في ليلة القدر على سائر ما سواها من الليالي.

وأما الأشياء التي يقع بها التفاضل فهي:

١ . يقع بما لا سبيل إلى اكتسابه كفضل ذات آدم عليه السلام حيث خلقها الله بيده ونفخ فيها من روحه وكفضل العرش على غيره .

٢ . يقع بما يكتسب وهذا خاص بالأحياء الذين لهم كسب فلا يدخل فيه ما لا حياة له ، ولا يدخل فيه أيضاً ما فيه حياة و لكن لا كسب له كالملائكة.

ومثاله: الغنى فإنه فضل يكتسبه العبد بسعيه .

وبعد، فكما فضل الله سبحانه بعض الأزمنة على بعض كتفضيل رمضان على غيره من الشهور ، وفضل بعض الأمكنة على بعض، كتفضيل مكة المكرمة شرفها الله، والمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، على غيرهما من البقاع ، كذلك فضل بعض عبادته على بعض، ففضل سبحانه الرسل على سائر البشر، كما قال تعالى: [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض]، وجعل سبحانه أولي العزم من الرسل أفضل من غيرهم

من الرسل، وفضل سبحانه الرسل على الأنبياء. وفضل سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم.

و الإمام ابن حزم عندما تكلم موضعاً معنى الفضل كان يرمي بكلامه هذا إلى التأصيل، ووضع القواعد التي بها يعلم ترتيب الخلق بحسب الأفضل، حتى يكون هذا الترتيب على بصيرة، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى: "إن الكلام المهمل دون تحقيق المعنى المراد بذلك الكلام، فإنه طمس للمعاني، وصد عن إدراك الصواب، وتعريج عن الحق، وإبعاد عن الفهم، وتخليط وعمى، فلنبداً بعون الله تعالى وتأييده بتقسيم وجوه الفضل التي بها يستحق التفاضل، فإذا استبان معنى الفضل وعلى ماذا تقع هذه اللفظة، فبالضرورة نعلم حينئذ أن من وجدت فيه هذه الصفات أكثر فهو أفضل بلا شك" (١).

وبناء على ما أتت به النصوص المفضلة لبعض الخلق على بعضهم، وبناء على معنى الفضل ووجوهه التي بها يتم التفاضل، قام الإمام ابن حزم رحمه الله بترتيب الخلق بحسب الأفضل، وتفصيل ذلك كالآتي ...

المسألة الثانية: ذكر الإمام ابن حزم لترتيب الخلق بحسب الأفضل:

يقطع الإمام ابن حزم بأن أفضل الخلق الملائكة، ثم بعدهم الرسل من النبيين عليهم السلام وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بعدهم الأنبياء غير الرسل عليهم السلام، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

قال الإمام ابن حزم: "قال أهل الحق: إن الملائكة أفضل من كل خلق خلقه الله تعالى، ثم بعدهم الرسل من النبيين عليهم السلام، ثم بعدهم الأنبياء غير الرسل عليهم السلام، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١).

ثم قال رحمه الله: "وأفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم" (٢).

ثم قال رحمه الله: "وأما فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل رسول قبله فالثابت عنه عليه السلام أنه قال فضلت على الأنبياء بست (٣) وروى بخمس وروى بأربع وروى بثلاث رواه جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وحذيفة بن اليمان وأبو هريرة ويقول صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر (٤) وأنه عليه السلام بعث إلى الأحمر والأسود وأنه عليه السلام أكثر الأنبياء اتباعا وأنه ذو الشفاعة التي يحتاج إليه يوم القيامة فيها النبيون فمن دونهم أماتنا الله على ملته ولا خالف بنا عنه وهو أيضا عليه السلام خليل الله وكليمه" (٥).

ومن المعلوم أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن أفضل البشر الرسل . وأفضل الرسل أولي العزم ، وأفضل أولي العزم نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . ثم الأنبياء ثم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وأن أفضل هذه الأمة المحمدية بعد نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

٣ (مسلم) ، مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج ١ ، ص ٣٧١ ، (٥٢٣) . ولفظه "فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلي الخلق كافة وختم بي النبيون" .

٤ أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلق، ج ٤ ، ص ١٧٨٢ ، (٢٧٨) . بلفظ " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع" .

٥ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٢ .

صحابته الكرام. وأفضل الصحابة أبوبكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ابن عفان ثم علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين.

والإمام ابن حزم لم يخالف أهل السنة والجماعة في ترتيب البشر بحسب الأفضل إلا في تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة حتى علي أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عن الجميع. وخلافه هذا شاذ. كذلك خالف أكثر أهل السنة والجماعة بإثباته النبوة لبعض النساء مما يعني تقديمهن على الصحابة رضوان الله عليهم في الفضل، وقد مر أن الراجح عندنا هو أنه لم تكن في النساء نبية. والمتأمل لكلام ابن حزم في تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة يجد فيه من الغرابة والتناقض ما يتعجب منه الناقد البصير الخبير بالأحاديث المصروفة بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها . صلى الله عليه وسلم . أبوبكر الصديق ثم عمر الفاروق رضوان الله عليهم أجمعين . ولذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : "وأما نساء النبي فلم يقل إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد ابن حزم، وهو قول شاذ لم يسبقه إليه أحد وانكره عليه من بلغه من أعيان العلماء، ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول" (١). ثم قال : "والأحاديث المفضلة للصحابة كقوله صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً" (٢) يدل على أنه ليس في الأرض أهل لا من الرجال ولا من النساء أفضل عنده من أبي بكر وكذلك

١ ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ج ٤ ، ص ٣٩٥.

٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب القسامة في الجاهلية ، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، ج ٣ ، ص ١٤١٧ ، (٣٦٩١).

ما ثبت في الصحيح عن علي أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر^(١)".

قال: "وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف، وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه، كما يعجب مما يأتي من الأقوال الحسنة الفائقة، وهذا كقوله إن مريم نبيه، وإن آسية نبيه، وإن أم موسى نبيه"^(٢).

حجج ابن حزم في تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة:

الحجة الأولى : أعلى أهل الجنة درجة من كان مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، في سرره وقصوره ، وليس ذلك إلا لنسائه صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهن.

قال ابن حزم في فضل نساء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه الفصل : "فهن أزواجه في الآخرة بيقين، فإذا هن كذلك فهن معه صلى الله عليه وسلم بلا شك في درجة واحدة في الجنة في قصوره وعلى سرره، إذ لا يمكن ألبة أن يحال بينه وبينهن في الجنة، ولا أن ينحط عليه السلام إلى درجة يسفل فيها عن أحد من الصحابة، هذا ما لا يظنه مسلم"^(٣).

^١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذًا خليلاً، ج ٣، ص ١٣٤٢، (٣٤٦٨).

^٢ ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ج ٤ ، ص ٣٩٦.

^٣ ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ج ٤ ، ص ٣٩٦.

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٠. وانظر ابن حزم : الدرر فيما يجب اعتقاده ص ٣٦٥.

وبنفس الحجة جعل ابن حزم مارية رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم في نفس درجته في الجنة، وألحق معها ابنها إبراهيم رضي الله عنه . قال ابن حزم : " ومارية أم إبراهيم داخلة معهم في ذلك لأنها معه عليه السلام في الجنة، ومع ابنها منه بلا شك، فإذا قد ثبت كل ذلك على رغم الآبي، فقد وجب ضرورة أن يشهد لهم كلهم بأنهم أفضل من جميع الخلق كله بعد الملائكة والنبیین عليهم السلام" (١).

قال ابن تيمية في الرد عليه : " وحجته التي احتج بها فاسدة، فإنه احتج على ذلك بأن المرأة مع زوجها في درجته في الجنة، ودرجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات، فيكون أزواجه في درجته.

وهذا يوجب عليه أن يكون أزواجه أفضل من الأنبياء جميعهم، وأن تكون زوجة كل رجل من أهل الجنة أفضل ممن هو مثله، وأن يكون من يطوف على النبي صلى الله عليه وسلم من الولدان، ومن يزوج به من الحور العين، أفضل من الأنبياء والمرسلين. وهذا كله مما يعلم بطلانه عموم المؤمنين" (٢).

ولقد حاول ابن حزم أن يفر من هذه الإلزامات:

فمثلاً يقول ابن حزم : "واعترض أيضا علينا مكي بن أبي طالب (٣) بأن قال: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من موسى عليه السلام

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

^٢ ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ج ٤ ، ص ٣٩٥ ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

^٣ أبو محمد مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ، أصله من القيروان، وقد ولد فيها، ثم انتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة، من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، كان حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التوليف في علم القرآن، محسناً لذلك، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها، انتفع به خلق كثير، وله تصانيف كثيرة نافعة: منها الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه، والتبصرة في القراءات، والموجز في القراءات، وغيرها كثير، وكان خيراً فاضلاً، متواضعاً متديناً، مشهوراً بإجابة الدعاء، توفي سنة ٤٢٧ هـ. انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٥/ص ٢٧٤. ٢٧٧ .

ومن كل واحد من الأنبياء عليهم السلام، وكان عليه السلام أعلى درجة في الجنة من جميع الأنبياء عليهم السلام، وكان نساؤه عليه السلام معه في درجته في الجنة، فدرجتهن فيها أعلى من درجة موسى عليه السلام، ومن درج سائر الأنبياء عليهم السلام، فهن على هذا الحكم أفضل من موسى وسائر الأنبياء عليهم السلام" (١).

قال ابن حزم رحمه الله تعالى في الرد على هذا الاعتراض: "فأجبناه بأن هذا الاعتراض أيضا لا يلزمنا والله الحمد؛ لأن الجنة دار ملك وطاعة، وعلو منزلة ورياسة، واتباع من التابع للمتبع" (٢).

ثم ذكر سعة ملك الآخرة وأنه هو الملك الحقيقي وأن الانبياء مع أتباعهم كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر أن الخلق في الجنة طبقات، فالملائكة طبقة، والأنبياء طبقة، والصحابة طبقة، وأن أصحاب كل طبقة يتفاضلون فيما بينهم، وأنه لا يجوز في التفاضل أن ينظر إلى الطباق المختلفة، وعليه "فوجب بلا شك أن لا يكون اتباع الرسل من النساء والأصحاب كالمتبوعين الذين هم الرسل؛ لأن بالضرورة نعلم أن تابع الأعلى ليس لاحقا نظير متبوعه فكيف أن يكون أعلى منه. كما أن التابعيات من نساء الصحابة رضي الله عنهم لا يلحقن نظراء أزواجهن من الصحابة إذ ليس هن معهم في طبقة، وإنما ننظر بين أهل كل طبقة ومن هو في طبقة، ونساء النبي صلى الله عليه وسلم طبقة واحدة مع الصحابة فصح التفاضل بينهم وليس واحدة منهن ولا منهم مع الأنبياء في طبقة فلم يجز أن ينظر بينهم" (٣). وحاصل كلامه أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في أعلى

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠١ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

طبقة وهي مختلفة عن طبقة الصحابة رضوان الله عليهم ، وفي التفاضل لا ينظر بين الطبقات المختلفة^(١).

ولنا أن نقول لابن حزم : إن تفصيلك هذا بذكر الطبقات حيدة عن نتيجة جواب الأسئلة الثلاثة التالية:

السؤال الأول : هل نساء النبي صلى الله عليه و سلم معه في أعلى درجة في الجنة ؟ والجواب عندك بالإيجاب .

السؤال الثاني: هل درجة النبي صلى الله عليه و سلم أعلى من جميع درجات الأنبياء عليهم السلام في الجنة؟ والجواب عندك أيضاً بالإيجاب.
عليه يلزمك أن نساء النبي صلى الله عليه و سلم في درجة أعلى من الأنبياء عليهم السلام في الجنة.

السؤال الثالث: هل يجوز أن يكون المفضل أعلى درجة في الجنة من الفاضل؟ والجواب عندك بالسلب، فيلزمك أنك فضلت نساء النبي صلى الله عليه و سلم على جميع الأنبياء عليهم السلام عدا نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ، إذ أنك ترى أن نتيجة وجوه الفضائل بالأعمال ونتيجة فضل الاختصاص المجرد بلا عمل وجهان:

أحدهما: " إيجاب الله تعالى تعظيم الفاضل في الدنيا على المفضل، فهذا الوجه يشترك فيه كل فاضل بعمل أو اختصاص مجرد بلا عمل"^(٢).

والوجه الثاني: " هو إيجاب الله تعالى للفاضل درجة في الجنة أعلى من درجة المفضل، إذ لا يجوز عند أحد من خلق الله تعالى أن يأمر بإجلال

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

المفضول أكثر من إجلال الفاضل، ولا أن يكون المفضول أعلى درجة في الجنة من الفاضل، ولو جاز ذلك لبطل معنى الفضل جملة، وكان لفظاً لا حقيقة له ولا معنى تحته، وهذا الوجه الثاني . الذي هو علو الدرجة في الجنة . هو خاصة لكل فاضل يعمل فقط من الملائكة والإنس والجن" (١).

وهذا تناقض من ابن حزم إذ يقول: بأنه لا يجوز أن يكون المفضول أعلى درجة في الجنة من الفاضل ، ويؤكد بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم معه في نفس الدرجة التي هي أعلى الدرجات في الجنة، ومعلوم أن درجات الأنبياء عليهم السلام دون درجة النبي صلى الله عليه وسلم يقيناً، فيلزمه على هذا أن يكون نساء النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من النبيين، وهذا باطل بالاتفاق. بل هو يقر بأفضلية جميع الأنبياء على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فظهر بهذا تناقضه واضطرابه.

ونقول لابن حزم: قولك بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم معه في نفس درجته التي في الجنة يلزم منه عدم التفاضل بينهما؛ لأنهن في درجة واحدة، مع أن التفاضل بينهما ثابت، وأنت تقول به ، حيث قلت : "وأما أفضل نسائه فعائشة وخديجة رضي الله عنهما؛ لعظم فضائلهما وإخباره عليه السلام أن عائشة أحب الناس إليه، وأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وقد ذكر عليه السلام خديجة بنت خويلد فقال: أفضل نسائها مريم بنت عمران، وأفضل نسائها خديجة بنت خويلد، مع سابقة خديجة في الإسلام، وثباتها رضي الله عنها، ولأم سلمة وسودة وزينب بنت جحش، وزينب بنت خزيمة، وحفصة، سوابق في الإسلام عظيمة، واحتمال

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

للمشقات في الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه و سلم، والهجرة، والغربة عن الوطن، والدعاء إلى الإسلام، والبلاء في الله عز و جل ورسوله صلى الله عليه و سلم، ولكلهن بعد ذلك الفضل المبين رضوان الله عليهن أجمعين" (١).

ويلزم من ذلك أيضاً عدم التفريق بين الزوجات في الدرجات في الجنة، ومعلوم أن الدرجات في الجنة بحسب الإيمان.

كذلك يحاول ابن حزم مرة أخرى أن يفر من الإلزامات بجعل وجود الحور العين مع النبي صلى الله عليه وسلم في درجته مجرد اختصاص لهن حيث قال: "فإن قال قائل فكيف يقولون (٢) في الحور العين، أهن أفضل من الناس ومن الأنبياء كما قلت في الملائكة؟ فجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن الفضل لا يعرف إلا ببرهان مسموع من الله تعالى في القرآن، أو من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم نجد الله تعالى نص على فضل الحور العين كما نص على فضل الملائكة، وإنما نص على أنهن مطهرات حسان عرب أتراب، يجامعن ويشاركن أزواجهن في اللذات كلها، وأنهن خلقن ليلتذ بهن المؤمنون فإذا الأمر هكذا فإنما محل الحور العين محل من هن له، فقط إن ذلك اختصاص لهن بلا عمل وتكليف، فهن خلاف الملائكة في ذلك. وبالله تعالى التوفيق" (٣).

ويقال لابن حزم يلزم من قولك هذا أن الحور العين الذين يزوجن بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في محله، أنهن في درجته صلى الله عليه

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

٢ في الأصل يقولون والصحيح : تقولون ، إذ لا يستقيم المعنى بغير ذلك .

٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

وسلم، وعليه يلزمك أنهن أفضل من الأنبياء عليهم السلام ؛ لأنك تجزم بأن المفضول لا يمكن أن يكون أعلى درجة في الجنة من الفاضل.

والعجب أن ابن حزم رغم أنه جعل إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم معه في الجنة في نفس درجة التي معه فيها أزواجه، إلا أنه توقف في تفضيله على أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، بينما جزم بتفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عليهما . رضي الله عنهما . وعلى سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فقال: " فلا يقال إن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من أبي بكر أو عمر ولا يقال أيضا إن أبا بكر وعمر أفضل من إبراهيم والمفاضلة واقعة بين الصحابة وبين نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أعمالهم وسوابقهم لها مراتب متناسبة بلا شك" (١).

وهذا التعليل من ابن حزم محاولة للخروج من الإلزام الواضح والذي مفاده: ألا فرق عندك يا ابن حزم بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وإبراهيم ابنه عليه السلام في الدرجة في الجنة، فالكل مع النبي صلى الله عليه وسلم معه في درجته في الجنة كما جزمت بذلك، فلم فصلت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما وتوقفت في تفضيل إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما رضي الله عنهما؟ بل أنت تقر بأن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى مكاناً في الجنة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بنص قولك، حيث قلت : " فلو قال قائل أيما أفضل في الجنة وأعلى قدراً مكان إبراهيم ابن رسول الله عليه وسلم أو مكان أبي بكر وعمر وعثمان

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

وعلي رضي الله عنهم قلنا مكان إبراهيم أعلى بلا شك" (١). فكيف تتوقف في تفضيل إبراهيم ابن رسول الله عليه وسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع هذا الإقرار؟ إن توقفك هذا نقض لحجتك من أصلها. والحق أن ثبوت فضيلة للمفضول يختص بها لا تقتضي تقديمه على الفاضل.

ثم إن تعليقك هذا وهو قولك "والمفاضلة واقعة بين الصحابة وبين نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن أعمالهم وسوابقهم لها مراتب متناسبة بلا شك" (٢)، انتقال إلى حجة أخرى ، وهي أن لهن من العمل والسوابق ما أهلهن لأن يكن أفضل من أبي بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. ويؤكد ذلك أنك قلت: "وفضل إبراهيم ليس على عمل أصلاً، وإنما هو اختصاص مجرد، وإكرام لأبيه صلى الله عليه وسلم، وأما نساؤه عليه السلام فكونهن وكون سائر أصحابه عليهم السلام في الجنة، إنما هو جزاء لهن ولهم على أعمالهن وأعمالهم" (٣).

فهل حجتك في تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في درجته في الجنة وقد تم الرد عليها ؟

أم أن حجتك أن لهن من العمل والسوابق ما أهلهن لأن يكن أفضل من أبي بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؟

ونقول في الرد عليها ...

الحجة الثانية: لنساء النبي صلى الله عليه وسلم من العمل مثل ما لغيرهم من الصحابة رضي الله عن الجميع مع مضاعفة الأجر لهن في العمل .

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

المتتبع لابن حزم في مسألة تفضيل نساء النبي صلى الله عليه و سلم على الصحابة يجده يعول على هذه الحجة كثيراً؛ وكأنه يصر على أن نساء النبي صلى الله عليه و سلم ما استحقين مكانهن مع النبي صلى الله عليه و سلم في الجنة، وما فضلن سائر الصحابة رضوان الله عليهم إلا بالعمل. فهذا هو يقول: "وقد أوضحنا أن الجنة دار جزاء على أعمال المكلفين، فأعلاهم درجة أعلاهم فضلاً، ونساء النبي صلى الله عليه و سلم أعلا درجة في الجنة من جميع الصحابة، فهن أفضل منهم فمن أبى هذا فليخبرنا ما معنى الفضل عنده؟ إذ لا بد أن يكون لهذه الكلمة معنى، فإن قال: لا معنى لها فقد كفانا مؤنته، وإن قال: لها معنى، سألناه ما هو؟ فإنه لا يجد غير ما قلناه. وبالله تعالى التوفيق" (١).

واستمع إليه أيضاً وهو يقول في تقرير هذه الحجة: "ثم وجدناهن لا عمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد، يسبق فيه صاحب من الصحابة إلا كان فيهن فقد كن يجهدن أنفسهن في ضيق عيشهن على الكد في العمل بالصدقة والعق ويشهدن الجهاد معه عليه السلام وفي هذا كفاية بينة في أنهن أفضل من كل صاحب" (٢). إلى أن قال "فإذ لا شك في حصولهن على هذه المنزلة (٣) فالبنص والإجماع علمنا أنهن لم يؤتتا ذلك اختصاصاً مجرداً دون عمل بل باستحقاقهن لذلك باختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة إذ أمره الله عز و جل أن يخيرهن فاخترن الله عز وجل ونبيه صلى الله عليه و سلم وهو أفضل الناس ثم قد حصل لهن أفضل الأعمال

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

٣ يقصد بالمنزلة وجودهن مع النبي صلى الله عليه وسلم في نفس درجته في الجنة .

في جميع الوجوه السبعة التي قدمنا أنفا أنه لا يكون التفاضل إلا بها في الأعمال خاصة" (١).

ونقول لابن حزم: كون نساء النبي صلى الله عليه و سلم كن يشهدن معه الجهاد فهذه مجرد دعوى ، بل الثابت في السنة المطهرة أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يقرع بين نسائه في الذهاب إلى الجهاد، وليس هنالك دليل يدل على أن واحدة من نساء النبي صلى الله عليه و سلم شاركته جميع غزواته، بخلاف الصحابة فقد حصل لكثير منهم المشاركة في جميع غزوات النبي صلى الله عليه و سلم (٢).

ونقول لابن حزم أيضاً : وكيف تدعي أن لنساء النبي صلى الله عليه و سلم من العمل ما استحقين به أن يكن مع النبي صلى الله عليه و سلم في منزلته في الجنة، والكل يعلم أنه لا يوجد أحد من الخلق، مساوياً لأقل الأنبياء درجة في فضل العمل، فكيف بأفضل الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين؟

ويرى ابن حزم أن مما يقوي حجته في تفضيل نساء النبي صلى الله عليه و سلم على سائر الصحابة رضوان الله على الجميع : أن الصحابي إذا عمل عملاً ، وعملت زوجة النبي صلى الله عليه و سلم نفس العمل، فلها ضعف أجر الصحابي فيقول: "المضاعفة لهن إنما هي في كل عمل عملنه بنص القرآن إذ يقول القرآن يقول الله تعالى: [ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين] (٣)، فكل عمل عمله صاحب من الصحابة له

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٠.

٢ د. محمد بن عبد الرحمن أبو يوسف الشطيبي : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٩٦.

٣ سؤلة الأحزاب الآية ٣١.

فيه أجر، فلكل امرأة منهن في مثل ذلك العمل أجران، والمضاعفة لهن إنما تكون على ما عمله طبقتهن من الصحابة، وقد علمنا أن بين صاحب وعمل غيره أعظم مما بين أحد ذهباً ونصف مد شعير، فيقع لكل واحدة منهن مثلاً ذلك مرتين، وهذا لا يخفى على ذي حس سليم^(١).

لكن نقول لابن حزم هل كل عمل عمله الصحابة رضوان الله عليهم، عمله نساء النبي صلى الله عليه وسلم ؟ اللهم لا، فقد تقدم على سبيل المثال أن مشاركة نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد كانت محدودة بخلاف الصحابة رضوان الله علي الجميع.

ونختم فنقول: اضطرب ابن حزم اضطراباً واضحاً، فبعد أن جعل علة تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة أنهن معه صلى الله عليه وسلم في درجته ، جعلها من تساوى معه في الجزاء، ثم استدرك على نفسه فقال: " فإن قال قائل أنهن لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حصلن تلك الدرجة، وإنما تلك الدرجة له عليه السلام، قلنا وبالله تعالى التوفيق: نعم ولا شك أيضاً في أن جميع الصحابة لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حصلوا على الدرج التي لهم فيها، فإنما هي إذاً على قولكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قلتم ولا فرق، وبقي الفضل والتقدم لهن كما كان في كل ذلك ولا فرق"^(٢). ولكأن ابن حزم رحمه الله يصر على أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما استحقين مكانهن مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا جزاء على أعمالهن. ونكرر ما قلناه : هل

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

يوجد أحد من الخلق مساوياً لأقل الأنبياء درجة في فضل العمل ، فكيف بأعلاهم درجة وفضلاً صلى الله عليه وسلم؟

الحجة الثالثة: نساء النبي صلى الله عليه وسلم أعلى درجة في الصحبة من جميع الصحابة، لوكيد ملازمتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع ما لهن من حق الأمومة.

المنتبع لابن حزم في مسألة تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة يجده يجمع بين الحجج؛ ذلك لأن كل حجة بمفردها يمكن الرد عليها فهو ينتقل من حجة لأخرى لإقناع القارئ بمعتقدده.

يحتج ابن حزم بحق الأمومة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة ملازمتهم للنبي صلى الله عليه وسلم على فضلهن على سائر الصحابة قائلاً: "فبيقين ندري أنه لا تعظيم يستحقه أحد من الناس في الدنيا بإيجاب الله تعالى علينا، بعد التعظيم الواجب علينا للأنبياء عليهم السلام، أوجب ولاؤكد مما ألزمناه الله تعالى من التعظيم الواجب علينا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: [النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم] (١)، فأوجب الله لهن حكم الأمومة على كل مسلم، هذا سوى حق إعظامهن بالصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهن رضي الله تعالى عنهن مع ذلك حق الصحبة له كسائر الصحابة، إلا أن لهن من الاختصاص في الصحبة، ووكيد الملازمة له عليه السلام، ولطيف المنزلة عنده عليه السلام، والقرب منه والحظوة لديه، ما ليس لأحد من الصحابة رضي الله عنهم، فهن أعلى درجة في الصحبة من جميع الصحابة، ثم

١ سورة الأحزاب الآية ٦ .

فضلن سائر الصحابة بحق زائد وهو حق الأمومة الواجب لهن كلهن بنص القرآن لهن كلهن "(١).

والجواب عن هذا أن ثبوت فضل يختص به المفضل لا يستلزم أفضليته المطلقة، فإنه كما يقول ابن حجر في الفتح "لا يمتنع أن يفوق بعض المفضولين (٢) بخصلة لا تستلزم الأفضلية المطلقة" (٣)، ولو سلطنا سبيل تعداد الفضائل لوجدنا في بعض الصحابة من تزيد فضائله على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فعلى سبيل المثال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبابكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبابكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر] (٤)، يقول أحد الباحثين: "وهذا وحده يَرْجُحُ بما ذكره ابن حزم من ملازمة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم له، فعلى ابن حزم أن يأتي بدليل على تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن اجتهاده مدفوع بقيام الدليل من الكتاب والسنة والإجماع على تفضيل غيرهن من الصحابة على سائر الصحابة، والله أعلم" (٥).

وسياتي الكلام إن شاء الله تعالى على تفضيل الخلفاء الأربعة على سائر الصحابة وذلك بالإجماع بين علماء أهل السنة والجماعة.

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٩ .

^٢ يعني لا يمتنع أن يفوق بعض المفضولين بعض الفاضلين بخصلة.

^٣ ابن حجر: فتح الباري ج ٧ ، ص ٢٥٥ .

^٤ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب القسامة في الجاهلية ، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، ج ٣ ، ص ١٤١٧ ، (٣٦٩١).

^٥ انظر د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي: مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٩٦.

لكن ابن حزم لم يكتف بما تقدم بل ادعى النص والإجماع في تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة، فإلى نص كلامه في الحجة التالية...

الحجة الرابعة: وجود نص في تفضيل عائشة رضي الله عنها على سائر الصحابة رضي الله عنهم.

يجزم ابن حزم بوجود النص في تفضيل عائشة رضي الله عنها وبالطبع بقية زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة رضي الله عنهم حين قال: "فكيف ومعنا نص النبي صلى الله عليه وسلم" (١).

ثم ساق إسناداً إلى أن أوصله إلى أنس بن مالك الذي قال: [قيل يا رسول الله من أحب الناس إليك قال عائشة قال من الرجال قال فأبوها إذن] (٢).

ثم ساق إسناداً آخر إلى أن أوصله إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي أخبر: [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى جيش ذات السلاسل قال فأنتيته فقلت أي الناس أحب إليك فقال: عائشة، قلت: من الرجال قال أبوها قلت ثم من قال عمر فعد رجالاً] (٣).

^١ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٩٠.

^٢ (الترمذي) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها، ج ٥، ص ٧٠٧ (٣٨٩٠). بلفظ "قيل يا رسول الله من أحب الناس إليك قال عائشة قيل من الرجال قال أبوها" قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث أنس. والحديث صححه الألباني، انظر محمد ناصر الدين الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، ج ٢، ص ٢٩٠.

^٣ (الترمذي) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها، ج ٥، ص ٧٠٦، (٣٨٨٥). بلفظ "قال فأنتيته فقلت يا رسول الله أي الناس أحب إليك قال عائشة قال من الرجال قال أبوها". قال المحقق أحمد شاكر: حديث حسن صحيح.

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: "فهذان عدلان أنس، وعمر، يشهدان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بأن عائشة أحب الناس إليه ثم أبوها وقد قال عز وجل عليه السلام: [وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى] (١)، فصح أن كلامه عليه السلام بأنها أحب الناس إليه وحي أوحاه الله تعالى إليه ليكون كذلك ويخبر بذلك لا عن هوى له، ومن ظن ذلك فقد كذب الله تعالى، لكن لاستحقاقها لذلك الفضل في الدين والتقديم فيه على جميع الناس، الموجب لأن يحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من محبته لجميع الناس، فقد فضلها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيها، وعلى عمر، وعلى علي وفاطمة رضي الله عن جميعهم، تفضيلاً ظاهراً بلا شك" (٢).

لقد فهم ابن حزم من الحديثين السابقين تفضيل عائشة على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بل تفضيلها على سائر الصحابة، وبالطبع هذا يقوي في نظره قوله بتفضيل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة رضي الله عنهم، بل هو نص يعول عليه. والحق أن هذا الفهم ليس بسديد، لسببين:

السبب الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف ذهنه عندما سأله الصحابي: من أحب الناس إليك؟ إلى جنس النساء فقال صلى الله عليه وسلم: عائشة. فعندها سأله الصحابي عن أحب الناس إليه من الرجال فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم أبوبكر ثم عمر، فليس في الحديثين ما يدل على فضل عائشة على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

١ سورة النجم آية ٣، ٤.

٢ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٩١.

السبب الثاني: وجود الأدلة الشرعية القاطعة بتقديم أبي بكر على سائر الصحابة، وبعده عمر رضي الله عن الجميع. بل الحديث الأخير الذي استدل به ابن حزم على فضل عائشة على الصحابة رضي الله عن الجميع، هو من أكبر الأدلة على فضل أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما على جميع الصحابة رضي الله عن الجميع بنص الحديث.

ومن الأدلة على تفضيل أبي بكر على سائر الصحابة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوذة في هذا المسجد غير خوذة أبي بكر] (١).

وكذلك حديث جبير بن مطعم قال: [أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أريت إن جئت ولم أجذك؟ كأنها تقول الموت، قال عليه السلام: إن لم تجدني فأتي أبا بكر] (٢).

وعندما حدثت محاورة بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فغضب عمر رضي الله عنه، ثم أقبل أبوبكر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: [هل أنتم تاركوا لي

١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الصلاة، باب الخوذة والممر في المسجد، ج ١، ص ١٧٨، (٤٥٥).

٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً خليلاً، ج ٣، ص ١٣٣٨، (٣٤٥٩).

صاحبي؟ هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟، إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت^(١).

وقال علي رضي الله عنه وهو واقف على عمر عند موته: [ما خلفت أحداً أحب علي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت أضن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنني كنت كثيراً أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول "ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر"^(٢)].

بل اتفق أهل السنة والجماعة على أن أفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر قال ابن تيمية رحمه الله: "وَأَمَّا تَفْضِيلُ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرَا عَلَى عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِمَامَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ ، وَأَهْلِ مِصْرَ ، وَالْأَوْزَاعِيِّ ، وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَأَبِي حَنِيفَةَ ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ، وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، وَأَمَثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ لَهُمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الْأُمَّةِ .

وَحَكَى مَالِكٌ إِجْمَاعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : مَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا مِمَّنْ أَقْتَدِي بِهِ يَشْكُ فِي تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ"^(٣).

^١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الغاوي، باب قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ج ٤، ص ١٧٠١، (٤٣٦٤).

^٢ شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: الفتاوى الكبرى، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٤٦٧.

^٣ شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: الفتاوى الكبرى، ج ١، ص ٤٧٥.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: "يَا أَبَتَ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ أَوْ مَا تَعْرِفُ ؟ قُلْتُ : لَا قَالَ : أَبُو بَكْرٍ ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ عُمَرُ" (١) .

قال ابن تيمية رحمه الله: "والأحاديث المفضلة للصحابه كقوله صلى الله عليه وسلم: {لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا} يدل على أنه ليس فى الأرض أهل لا من الرجال ولا من النساء أفضل عنده من أبى بكر، وكذلك ما ثبت فى الصحيح عن على أنه قال: خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وما دل على هذا من النصوص التى لا يتسع لها هذا الموضع" (٢).

وخلاصة هذا المطلب أن الله سبحانه وتعالى كما فاضل بين مخلوقاته فجعل بعض الأزمنة أفضل من بعض كتفضيل رمضان على غيره من الشهور ، وليلة القدر على غيرها من الليالي، وجعل بعض الأمكنة أفضل من بعض . فإنه من المعلوم أن مكة المكرمة شرفها الله والمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم أفضل البقاع على وجه هذه البسيطة . كذلك فضل بعض البشر على بعض، فقد فضل سبحانه الرسل على سائر البشر، كما قال تعالى: [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض]، وجعل سبحانه أولي العزم من الرسل أفضل من غيرهم من الرسل، ثم يلي الرسل فى الترتيب بحسب الأفضل الأنبياء ثم الصديقين ثم الشهداء ثم الأولياء .

^١ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا ، ج ٣ ، ص ١٣٤٢ ، (٣٤٦٨).

^٢ ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ج ٤ ، ص ٣٩٦.

وفضل سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم. وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن **أفضل الناس** بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم سائر العشرة المبشرين بالجنة . قال في لوامع الأنوار البهية والتحقيق: ثم باقي أهل بدر ثم أهل بيعة الرضوان ثم أهل أحد ثم باقي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين^(١). لكن يبقى سؤال في تفضيل الخلق بعضهم على بعض وهو هل الملائكة أفضل أم الرسل والأنبياء والصالحين؟ ولما كانت الإجابة على هذا السؤال تطول أفردناها بمطلب منفصل، هو المطلب التالي ...

المطلب الثاني : هل الملائكة أفضل أم الرسل والأنبياء؟

لقد كان كالمستقر عند سلف هذه الأمة أن الرسل والأنبياء من البشر أفضل من الملائكة^(٢)، وإن كانت الأقوال في هذه المسألة ثلاثة : القول السالف وهو منسوب إلى أكثر أهل السنة والجماعة ، وعكسه وهو قول المعتزلة ومن وافقهم، كالأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، والحاكم، والحلي، والإمام فخر الدين في المعالم، وأبو شامة^(٣)، والإمام ابن حزم^(٤) وغيرهم . وقول ثالث بالتوقف.

^١ العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرق المرضية، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

^٢ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤، ص ٣٦٩، ٣٧٠ .

^٣ انظر العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرق المرضية، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

^٤ انظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

وأقدم كلام في هذه المسألة كما قال ابن كثير هو: "ما ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم.

واستدل بقوله تعالى (إن الذين آمنوا وعلموا الصالحات أولئك هم خير البرية)(١) ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك ما أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه.

واستدل بقوله تعالى (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)(٢).

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي ما تقول أنت يا أبا حمزة ؟ فقال قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة . فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله"(٣).

وفي ما سلف من أثر الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، رد على ما قاله تاج الدين الفزاري حينما قال عن هذه المسألة: "اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام ، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة"(٤).

١ سورة البينة الآية ٧ .

٢ سورة الاعراف الآية ٢٠ .

٣ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء : البداية والنهاية، ج ١ ، ص ٥٤ .

٤ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة: تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ، ص ٧٠٠ .

ولقد كثر الكلام في هذه المسألة بعد ظهور المعتزلة وغيرهم ممن يقول بتفضيل الملائكة على الرسل والأنبياء والصالحين^(١) فاضطر بعض أهل السنة للرد عليهم لاعتقادهم أفضلية الرسل والأنبياء على الملائكة ، مع العلم بأن أدلة الفريقين النقلية متكافئة ، ومع العلم بأن الصحابة رضي الله عنهم^٢ وهم أحرص الناس على العلم لم يبحثوا هذا البحث ولم يقولوا البشر أفضل أم الملائكة^(٢).

ولكن نقول عذر علماء السنة هو عذرنا وهو الاضطرار إلى الخوض في الكلام على هذه المسألة مع الكراهة ؛لأن الأجدر بنا أن نسكت عما سكت عنه الصحابة. ومما اضطرنا إلى الخوض في هذه المسألة أن ابن حزم تناولها فكان يرى أن الملائكة أفضل من الرسل والأنبياء .

قال ابن حزم: "ذهب قوم إلى أن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة وذهبت طائفة تنتسب إلى الإسلام أن الصالحين غير النبيين أفضل من الملائكة"^(٣).

ثم قال :**"قال أهل الحق: إن الملائكة أفضل من كل خلق خلقه الله تعالى ثم بعدهم الرسل من النبيين عليهم السلام ثم بعدهم الأنبياء غير الرسل عليهم السلام ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه"**^(٤).

^١ انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤، ص ٣٦٩، ٣٧٠ .

^٢ محمد بن صالح العثيمين، شرح العقيدة السفارينية، مدار الوطن للنشر، السعودية ، الرياض ، ط ١ / ١٤٢٦ هـ ، ص ٦٥٣ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

وله حجج وبراهين في تفضيل الملائكة على الأنبياء منها :

أ . أن الله أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول: " قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك أن أتبع إلا ما يوحى إلي" (١).

يقول ابن حزم : "فلو كان الرسول أرفع من الملك أو مثله ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول الذي إنما قاله منحطاً عن الترفع بأن يظن أنه عنده خزائن الله أو أنه يعلم الغيب أو أنه ملك منزل لنفسه المقدسة في مرتبته التي هي دون هذه المراتب بلا شك إذ لا يمكن ألبة أن يقول هذا عن مراتب هو أرفع منها" (٢).

ولقد أجاب من قال بتفضيل الأنبياء وصالحى البشر على الملائكة بأن هذه الآية رد على الكفار الذين كانوا قد قالوا : [مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق] (٣) فأمر الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إني بشر مثلكم ، أحتاج إلى ما تحتاجون إليه من الطعام والشراب والاكنتساب ، لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى ذلك، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة (٤) . وأن أقصى ما في ذلك تفضيل الملك في تلك الحال "وَلَوْ سَلِمَ ذَلِكَ لَمْ يَنْفِ أَنْ يَكُونَ فِيمَا بَعْدَ أَفْضَلِ مِنَ الْمَلِكِ ؛ وَلِهَذَا تَزِيدُ قُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ وَغِنَاهُ فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا كَمَا لَوْ قَالَ الصَّبِيُّ :

١ سورة الأنعام الآية ٥٠ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

٣ سورة الفرقان الآية ٧ .

٤ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة: تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفى، ج ٢ ، ص ٧٠٧ .

لَا أَقُولُ إِنِّي شَيْخٌ وَلَا أَقُولُ إِنِّي عَالِمٌ وَمِنْ الْمُمَكِّنِ تَرْقِيهِ إِلَى ذَلِكَ وَأَكْمَلَ مِنْهُ
" (١).

وأيضاً قالوا : إِنَّ النبي صلى الله عليه وسلم " نَفَى أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْغَيْبِ
وَعِنْدَهُ خَزَائِنُ اللَّهِ وَنَفَى أَنْ يَكُونَ مَلَكًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَتَمَتَّعُ ؛ وَإِذَا نَفَى
ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ : لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ الْمَلَكُ أَفْضَلَ مِنْهُ أَلَّا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ :
وَلَا أَنَا كَاتِبٌ وَلَا أَنَا قَارِئٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكَاتِبَ وَالْقَارِئَ أَفْضَلُ مِمَّنْ لَيْسَ
بِكَاتِبٍ وَلَا قَارِئٍ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْآيَةِ حُجَّةٌ " (٢) . وهذا هو الحق فليس في الآية
حجة لمن فضل الملائكة على الأنبياء . والله أعلم .

الحجة الثانية : ذكر الله جبريل فقال في وصفه : [إنه لقول رسول كريم
ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين] (٣) ثم ذكر محمداً صلى الله
عليه وسلم فقال : [وما صاحبكم بمجنون] (٤).

قال ابن حزم : " وأيضاً فإن الله عز وجل ذكر محمداً الذي هو أفضل الرسل
بعد الملائكة، وذكر جبريل عليهما السلام، وكان من التباين من الله عز
وجل بينهما تبايناً بعيداً، وهو أنه عز وجل قال : [إنه لقول رسول كريم ذي
قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين] (٥) فهذه صفة جبريل عليه
السلام، ثم ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : [وما صاحبكم
بمجنون] (٦)، ثم زاد تعالى بياناً رافعاً للإشكال جملة فقال : [ولقد رآه بالأفق

^١ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤ ، ص ٣٨٤ .

^٢ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

^٣ سورة التكويد الآيات ١٩ ، ٢١ .

^٤ سورة التكويد الآية ٢٢ .

^٥ سورة التكويد الآيات ١٩ ، ٢١ .

^٦ سورة التكويد الآية ٢٢ .

المبين[^(١)] فعظم الله تعالى من شأن أكرم الأنبياء والرسل بأن رأى جبريل عليه السلام، ثم قال: {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى}{^(٢)، فامتن الله تعالى كما ترى على محمد صلى الله عليه وسلم بأن أراه جبريل مرتين "^(٣)}.
 وهذه الحجة تابع فيها ابن حزم المعتزلة ، وهي قول من لم يقدر للنبي صلى الله عليه وسلم قدره .

ولنا أن نقول في الإجابة عليها: أين ما تقولونه من قوله تعالى : [ألم نشرح لك صدرك ؟] ^(٤) إلى آخر الآيات من سورة الشرح.

وقوله [والضحي والليل إذا سجي] ^(٥) إلى أن قال سبحانه : ولسوف يعطيك ربك فترضى.

وقوله: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ رَبُّكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ] ^(٦) الآيات من سورة الفتح.

وقوله [عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا] ^(٧) ؟

وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ الَّتِي تَأَخَّرَ فِيهَا جَبْرِيلُ عَنْ مَقَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْخَلَّةِ (١)؟

^١ سورة التكويد الآية ٢٣ .

^٢ سورة النجم الآية: ١٣ - ١٨ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

^٤ الآية الأولى من سورة الشرح.

^٥ سورة الضحى من الآية الأولى إلى الرابعة.

^٦ سورة الفتح الآيات ١ ، ٢ .

^٧ سورة الإسراء الآية ٧٩ .

ألم يتخذ الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خليلاً، كما اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلاً؟

ثُمَّ نَقُولُ ثَانِيًا : "لَمَّا زَعَمَ زَاعِمُونَ أَنَّ الَّذِي يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْطَانٌ يُعَلِّمُهُ مَا يَقُولُ أَوْ أَنَّهُ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ إِيَّاهُ بَعْضُ الْإِنْسِ . أَخْبَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ أَنَّ الَّذِي جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّسَالَةِ هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ رَسُولُ الْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَنَعَتُهُ سُبْحَانَهُ أَحْسَنَ النَّعَتِ . فَلَمَّا اسْتَقَرَّ حَالُ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ بَيَّنَّ أَنَّهُ مِنْ جِهَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْخَيْرِ .

وَكَانَ الرَّسُولُ الْبَشَرِيُّ مَعْلُومٌ ظَاهِرُهُ عِنْدَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يُبَلِّغُهُمُ الرِّسَالَةَ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا أَطَافُوا الْأَخْذَ عَنِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ : { صَاحِبُكُمْ } إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ قَدْ صَحِبَكُمْ سِنِينَ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا سَابِقَةَ لَهُ بِمَا تَقُولُونَ فِيهِ وَتَرْمُونَهُ ؛ مِنْ الْجُنُونِ وَالسِّحْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَأَنَّهُ لَوْلَا سَابِقَتُهُ وَصُحْبَتُهُ إِيَّاكُمْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ الْأَخْذَ عَنْهُ ؛ أَلَا تَسْمَعُهُ يَقُولُ : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا } ، ثُمَّ حَقَّقَ رِسَالَتَهُ بِأَنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ، وَأَنَّهُ مُؤْتَمِّنٌ عَلَى مَا يَأْخُذُهُ عَنْهُ فَقَامَ أَمْرُ الرِّسَالَةِ بِهِاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، وَجَاءَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَبْلَغِ وَالْأَكْمَلِ وَالْأَصْلَحِ" (٢) .

الحجة الثالثة: أكل آدم من الشجرة طمعاً في أن يكون ملكاً أو ليخلد.

استدل الإمام ابن حزم بقول عز وجل: [ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين] (٣) على أن آدم عليه الصلاة والسلام إنما أكل من الشجرة ليكون ملكاً أو ليخلد .

^١ انظر ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٤ ، ص ٣٨٨ .

^٢ ابن تيمية مجموع الفتاوى ج ٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ . باختصار يسير .

^٣ سورة الأعراف الآية ٢٠ .

قال رحمه الله تعالى: " فبيقين ندري أن آدم عليه السلام لولا يقينه بان الملائكة أفضل منه، وطمعه بأن يصير ملكا، لما قبل من إبليس ما غره به من أكل الشجرة التي نهاه الله عز وجل عنها، ولو علم آدم أن الملك مثله أو دونه، لما حمل نفسه على مخالفة أمر الله تعالى لينحط عن منزلته الرفيعة إلى الدون، هذا ما لا يظنه ذو عقل أصلا" (١).

وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهِ : -

" أَحَدُهَا : مَا ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَنَّ قَوْلَهُ : { إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ } ظَنُّ (٢) أَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَيْرٌ مِنْهُمَا كَمَا ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ وَكَانَ مُخْطِئًا . وَقَوْلُهُ : { أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } ظَنًّا مِنْهُ أَنََّّهُمَا يُؤْتِرَانِ الْخُلُودَ ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ السَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَالْآفَاتِ وَالْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ الْخَالِدَ فِي الْجَنَّةِ هَذِهِ حَالُهُ وَلَمْ يَخْرُجْ هَذَا مَخْرَجَ التَّفْضِيلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْخُورَ وَالْوِلْدَانَ الْمَخْلُوقِينَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدُونَ فِيهَا وَلَيْسُوا بِأَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؟

وَتَأْنِيهَا: أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَكَذَلِكَ الْخُلُودُ آثَرٌ عِنْدَهُمَا فَمَا لَا إِلَيْهِ .

وَتَأْنِيهَا : أَنَّ حَالَهُمَا تِلْكَ كَانَتْ حَالَ ابْتِدَاءٍ لَا حَالَ انْتِهَاءٍ فَإِنَّهُمَا فِي الْإِنْتِهَاءِ قَدْ صَارَا إِلَى الْخُلُودِ الَّذِي لَا حَظَرَ فِيهِ وَلَا مَعَهُ وَلَا يَعْقُبُهُ زَوَالٌ وَكَذَلِكَ يَصِيرَانِ فِي الْإِنْتِهَاءِ إِلَى حَالٍ هِيَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ مِنْ حَالِ الْمَلَكَ الَّذِي أَرَادَاهَا أَوَّلًا وَهَذَا بَيِّنٌ " (٣).

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

٢ أي إبليس .

٣ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .

ولا شك أن هذه الأجوبة أقوى وفيها الرد الشافي، فتأملها رحمك الله.

الحجة الرابعة:

قوله تعالى: لن يستتكف المسيح أن يكون عبد لله ولا الملائكة المقربون.

قال الإمام ابن حزم بعد ذكر قول الله عز وجل: [لن يستتكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون] (١): "فقوله عز وجل بعد ذكر المسيح ولا الملائكة المقربون بلوغ الغاية في علو درجتهم على المسيح عليه السلام؛ لأن بنية الكلام ورتبته إنما هي إذا أراد القائل نفي صفة ما عن متواضع عنها أن يبدأ بالأدنى ثم بالأعلى، وإذا أراد نفي صفة ما عن مترفع عنها أن يبدأ بالأعلى ثم بالأدنى، فنقول في القسم الأول: ما يطمع في الجلوس بين يدي الخليفة خازنه، ولا وزيره، ولا أخوه، ونقول في القسم الثاني: ما ينحط إلى الأكل في السوق وال ولا ذو مرتبة، ولا متصاؤون من التجار أو الصناع، لا يجوز ألبة غير هذا. وبالله تعالى التوفيق" (٢).

وأجيب بأجوبة عديدة منها: "أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفي العبودية ذل وخضوع وانقياد، وعيسى عليه السلام لا يستتكف عنها ولا من هو أقدر من هوأعظم خلقاً، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه" (٣).

١ سورة النساء الآية ١٧٢ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

٣ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة: تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ، ص ٧٠٧ .

ومنها :أن أقصى ما في تفضيل الملائكة على المسيح إنما هو في هذه الحياة الدنيا"وأما إذا استقر في الآخرة وكان ما كان مما لست أذكر: فمن أين يقال أنهم هناك أفضل منه؟" (١).

ومنها: أن نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام.

الحجة الخامسة:

قال أبو محمد: " وأيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بأن الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة من نور وخلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار" (٢).

قال أبو محمد: " ولا يجهل فضل النور على الطين وعلى النار أحد إلا من لم يجعل الله له نورا ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ربه في أن يجعل في قلبه نوراً، فالملائكة من جوهر دعا أفضل البشر ربه في أن يجعل في قلبه منه، وبالله تعالى التوفيق، وفي هذا كفاية لمن عَقَلَ. " (٣).

أقول: كون الملائكة خلقوا من نور فهذه خصيصة تدل على الفضل لا على الأفضلية المطلقة.

الحجة السادسة: قال عز وجل: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر إلى قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" (٤). قال أبو

^١ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٤ ، ص ٣٨٢ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

^٤ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

محمد : "فإنما فضل الله تعالى بنص كلامه عز وجل بني آدم على كثير ممن خلق، لا على كل من خلق، وبلا شك أن بني آدم يفضلون على الجن، وعلى جميع الحيوان الصامت، وعلى ما ليس حيوانا، فلم يبق خلق يستثنى من تفضيل الله تعالى بني آدم عليه إلا الملائكة فقط" (١).

وما ذهب إليه ابن حزم ، من أن الآية تدل على فضل الملائكة على الإنس صحيح، لكن ليس على الإطلاق من كل وجه، وإنما الفضل المقصود في هذه الآية هو أيهما أفضل من حيث الحقيقة المطلقة المجردة ؟ ولا شك أن "الحقيقة المَلَكِيَّةُ بِلَوَازِمِهَا أَفْضَلُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِلَوَازِمِهَا" (٢).

فَالْمَلِكُ "أَعْظَمُ صُورَةً، وَمَحَلَّهُ أَرْفَعَ، وَحَيَاتُهُ أَشَدَّ، وَعِلْمُهُ أَكْثَرُ، وَقُوَّاهُ أَشَدَّ، وَطَهَارَتُهُ وَنَزَاهَتُهُ أَتَمَّ، وَنَيْلَ مَطَالِبِهِ أَيْسَرَ وَأَتَمَّ" (٣).

لكن "تَخْصِيصُ الْكَثِيرِ بِالذِّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى مُخَالَفَةِ غَيْرِهِ بِنَفْيٍ وَلَا إِبْتِاثٍ، وَأَيْضًا فَإِنَّ مَفْهُومَهُ : أَنَّهُمْ لَمْ يُفْضَلُوا عَلَى مَا سِوَى الْكَثِيرِ، فَإِذَا لَمْ يُفْضَلُوا فَقَدْ يُسَاوُونَ بِهِمْ، وَقَدْ يُفْضَلُ أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْأَحْوَالَ ثَلَاثَةٌ : إِمَّا أَنْ يُفْضَلُوا عَلَى مَنْ بَقِيَ، أَوْ يُفْضَلُ أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُسَاوُونَ بِهِمْ" (٤). فلا يبقى في الآية حجة للطرفين.

وكذلك فضل الملائكة على الأنبياء المتكلم عنه هو في الدنيا، لكن إذا دخل الأنبياء الجنة هل يكون الأمر كما هو؟ أم يتساوون في الفضل ؟ أم يكون الأنبياء حينئذ أفضل من الملائكة؟

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٢ .

^٢ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤ ، ص ٣٥٥ .

^٣ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤ ، ص ٣٥٤ .

^٤ ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

الحجة السابعة: حصول فضل الاختصاص للملائكة.

قال ابن حزم: "وإنما يتفاضل الناس كما قدمنا بوجهين فقط

أحدهما: الاختصاص المجرد:

وأعظم الاختصاص الرسالة والتعظيم، فقد حصل ذلك للملائكة، قال تعالى: {جاعل الملائكة رسلاً} (١) فهم كلهم رسل الله تعالى، ثم اختصهم تعالى بأن ابتدأهم في الجنة وحوالي عرشه، في المكان الذي وعد رسله ومن اتبعهم بأن نهاية كرامتهم مصيرهم إليه، وهو موضع خلق الملائكة ومحلهم بلا نهاية مذ خلقوا، وذكرهم عز وجل في غير موضع من كتابه فأثنى على جميعهم، ووصفهم بأنهم لا يفترون ولا يسأمون، ولا يعصون الله، فنفى عنهم الزلل والفترة والسامة والسهو، وهذا أمر لم ينفه عز وجل عن الرسل صلوات الله عليهم بل السهو جائز عليهم، وبالضرورة نعلم من عُصِمَ من السهو أفضل ممن لم يعصم منه، وأن من عصم من العمد كالأنبياء عليهم السلام أفضل ممن لم يعصم ممن سواهم" (٢).

ونقول لابن حزم: ثبوت خصيصة أو خصائص للأنبياء لا يستلزم الأفضلية المطلقة، ثم إنك أنت تنظر إلى الأنبياء باعتبار البداية لا بكمال النهاية. فإن الأنبياء حين يدخلون الجنة يكونون في غاية الكمال، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب، يحيونهم ويدخلون عليهم السرور قال تعالى: {

١ سورة فاطر ١ .

٢ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥، ص ١٢٧ .

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ {١}.

وأيضاً نقول: إذا كان الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإن الأنبياء إذا فتروا عن التسبيح يأتون في حال فتورهم بالثناء على الرب عز وجل من الطاعات والعبادات بما هو أفضل من التسبيح، والنوم يختص إنما بأجسادهم وقلوبهم متيقظة غير نائمة، و أما في الآخرة فسيساوونهم في إلهام التسبيح كما يلهمون النفس، فقد جاء في صحيح مسلم. " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتقلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام، قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس" (٢).

الحجة الثامنة : حصول الفضل للملائكة بأعمال الطاعة والعصمة.

قال ابن حزم: " والوجه الثاني من أوجه الفضل: هو تفاضل العاملين بتفاضل منازلهم في أعمال الطاعة والعصمة من المعاصي والدنياه. وقد نص الله تعالى على أن الملائكة لا يفترون من الطاعة ولا يسأمون منها، ولا يعصون ألبتة في شيء أمروا به، فقد صح أن الله عز وجل عصمهم من الطبايع الناقصة الداعية إلى الفتور والكسل، كالطعام والتغوط وشهوة الجماع والنوم، فصح يقينا أنهم أفضل من الرسل الذين لم يعصموا من الفتور والكسل ودواعيهما" (٣).

١ سورة الرعد الآية ٢٣، ٢٤.

٢ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا ج ٤، ص ٢١٨٠، (٢٨٣٥).

٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥، ص ١٢٧.

ولنا أن نقول : لا شك في حصول الفضل للملائكة بأعمال الطاعة والعصمة، لكن إنما حصل لهم ذلك جبراً. وبالمثل لا شك في حصول الفضل كذلك للأنبياء بأعمال الطاعة والعصمة من المعاصي كبيرها ، والخسيس من صغيرها ، لكن مع الاختيار ، فانعكس الدليل لصالح الأنبياء. وأما عصمة الملائكة من الطبائع الناقصة الداعية إلى الفتور والكسل كالطعام والتغوط وشهوة الجماع والنوم ، فهذا الاختصاص في هذا الفضل لا يستلزم الأفضلية المطلقة . بل يمكن أن يقال : أن من تغلب على شهوة الجماع فلم يجامع إلا جماعاً حلالاً ، ولم يأكل إلا بقدر ما يقيم صلبه ويعينه على العبادة، وقام ليله، واحتسب القليل من نومه لله ، يكون قد حاز من الفضل ما لا يجده إلا مكابر. وهذا هو دأب الأنبياء. وقد تقدم أن الأنبياء يأتون في حال فتورهم بالثناء على الرب عز وجل ومن الطاعات والعبادات بما هو أفضل من التسبيح، وأن النوم يختص بأجسادهم دون قلوبهم.

ثم نقول : و لا شك أن الملائكة أفضل في أبنيتهم وجودة تركيبهم من بني آدم، فتحمل النصوص المفضلة لهم على ذلك، إذا كان النص يحتمل ذلك، فتندفع إشكالات كثيرة^(١).

حجج المخالفين لابن حزم كما أوردها هو رحمه الله ورده عليها:

^١ انظر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأنوار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية . تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي . ص

١ . الحجة الأولى :

قوله تعالى: [إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين](^١). قالوا فدخل في العالمين الملائكة وغيرهم.

رد ابن حزم

قال أبو محمد: "احتج بعض المخالفين في هذا بأن قال : قال الله عز وجل: [إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين](^٢) قالوا : فدخل في العالمين الملائكة وغيرهم"(^٣).

قال أبو محمد: "وهذه الآية قد صح البرهان بأنها ليست على عمومها؛ لأنه تعالى لم يذكر فيها آل محمدا صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف في أنهم أفضل الناس، قال الله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}(^٤) فإن قال: إن آل إبراهيم هم آل محمد، قيل له: فنحن إذا أفضل من جميع الأنبياء حاشا آل عمران وآدم ونوحا فقط، وهذا لا يقوله مسلم، فصح يقينا أن هذه الآية ليست على عمومها، فإذا لا شك في ذلك فقد صح أن الله عز وجل إنما أراد بها عالمي زمانهم من الناس لا من الرسل ولا من النبيين، نعم ولا من عالمي غير زمانهم؛ لأننا بلا شك أفضل من آل عمران. فبطل تعلقهم بهذه الآية جملة"(^٥).

^١ سورة آل عمران الآية ٣٣ .

^٢ سورة آل عمران الآية ٣٣ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

^٤ سورة آل عمران الآية ١١٠ .

^٥ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

ثم وضع الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى : أنها مثل قوله تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين} (١).
إذ لا شك في أن بني إسرائيل لم يفضلوا على الرسل، ولا على الأنبياء ولا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا على الصالحين من غيرهم، فكيف على الملائكة؟ (٢)

قال: " ونحن لا ننكر إزالة النص عن ظاهره وعمومه ببرهان من نص آخر أو إجماع متيقن أو ضرورة حس، وإنما ننكر ونمنع من إزالة النص عن ظاهره وعمومه بالدعوى، فهذا هو الباطل الذي لا يحل في دين، ولا يصح في إمكان العقل. وبالله تعالى التوفيق" (٣).

والحق أن اسم العالمين : قَدْ يُرَادُ بِهِ جَمِيعُ أَصْنَافِ الْخَلْقِ ، لكن الاحتجاج به في هذه الآية فيه نظر كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٤)، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْأَدَمِيُّونَ فَقَطْ، وقد يراد به عالمي أهل ذلك الزمان فقط (٥)، ويرى ابن حزم أنه هو المراد في هذه الآية ويزيد على ذلك إخراج الملائكة والنبيين من الدخول في هذه الآية، فعنده هذه الآية ليست على عمومها .

والصحيح ما قاله ابن حزم ، وهو أن الآية ليست على عمومها، فلا تدخل الملائكة في التفضيل المذكور في الآية.

٢ . الحجة الثانية:

١ سورة البقرة الآية ٤٧ . وأيضاً سورة البقرة الآية ١٢٢ .

٢ انظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

٤ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

٥ انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

قول الله عز وجل: [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية] (١). قالوا: فثبت بهذه الآية أن صالحى البشر خير الخلق.

قال أبو محمد: "ونذكر بعضهم قول الله عز وجل: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية}" (٢).

رد ابن حزم:

قال أبو محمد: "وهذا مما لا حجة لهم فيه أصلاً؛ لأن هذه الصفة تعم كل مؤمن صالح من الإنس ومن الجن، نعم وجميع الملائكة عموماً مستويين، فإنما هذه الآية تفضل الملائكة والصالحين من الإنس والجن على سائر البرية وبالله تعالى التوفيق" (٣).

والحق أن هذه الآية لا حجة فيها لمن فضل صالحى البشر على الملائكة؛ لأن لفظ البرية لو كان عاماً على قراءة من قرأ بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء . إن قلنا إنها مخففة . فالأمر كما قال ابن حزم، بل إن هذا الوصف . وهو الإيمان والعمل الصالح . الآن في الملائكة أكمل لكونهم لا يسأمون ولا يفترون عن فعل الطاعات .

١ سورة البينة الآية ٧ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

وإن قلنا : عن لفظ البرية " نسبة إلى البرى وهو التراب ، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح، يكون المعنى : أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها إذاً لغير من خلق من التراب"(١).

٣ . الحجة الثالثة: سجود الملائكة لآدم يدل على فضله عليهم.

قال أبو محمد: " واحتجوا بأمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم على جميعهم السلام"(٢).

رد ابن حزم

قال أبو محمد : "وهذا أعظم حجة عليهم؛ لأن السجود المأمور به لا يخلو من أن يكون: سجود عبادة وهذا كفر ممن قاله؛ لأنه يجيز أن يكون الله عز وجل يأمر أحدا من خلقه بعبادة غيره.

وأما ان يكون سجود تحية وكرامة، وهو كذلك بلا خلاف من أحد من الناس، فاذ هو كذلك فلا دليل أدل على فضل الملائكة على آدم من أن يكون الله تعالى بلغ الغاية في إعظامه وكرامته، بأن تحييه الملائكة لأنهم لو كانوا دونه لم يكن له كرامة ولا مزية في تحيتهم له، وقد أخبر الله عز وجل عن يوسف عليه السلام قال: [ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا]{(٣)} وكانت رؤياه هي التي ذكر الله عز وجل عنه إذ يقول: [إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين]{(٤)}.

١ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة: تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ، ص ٧٠٦ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

٣ سورة يوسف الآية ١٠٠ .

٤ سورة يوسف الآية ٤ .

قال أبو محمد: وليس في سجود يعقوب عليه السلام ليوسف ما يوجب أن يوسف أفضل من يعقوب" (١).

ولنا أن نقول لابن حزم : إن الخضوع بالقلوب على وجه العبودية لا يكون إلا لله، وهو كفر ممن أجاز له غير الله.

أما السجود على غير وجه العبودية فهو شريعة من الشرائع ؛ لذا فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له، وهو لآدم تشریف، وتكريم، وتعظيم، وليس تحية كما ادعيت. وسجود يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام تحية وسلام ، فقد كانت تحيتهم كذلك (٢).

وللمخالف لابن حزم في الرأي أن يقول : إن لم يكن في السجود تقضيل، وتشریف، وتكريم، وتعظيم لآدم ، فمن أي شيء فر الشيطان؟ هذا هو العجب العجيب (٣)!

وتفسير ذلك أن السجود لو لم يكن دالاً على زيادة منصب المسجود له على الساجد، لما قال إبليس: [أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ] (٤)، فإنه لا يوجد شيء يجعل إبليس ينطق بهذا الكلام إليه سوى هذا السجود، فدل ذلك على أن ذلك السجود اقتضى ترجيح منصب المسجود له على الساجد.

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

٢ انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

٣ انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ .

٤ الإسراء : ٦٢ .

٤ . الحجة الرابعة: قال ابن حزم: "واحتجوا أيضا بأن الملائكة لم يعلموا أسماء الأشياء حتى أنبأهم بها آدم، على جميعهم السلام، بتعليم الله عز وجل آدم إياها"^(١).

رد ابن حزم: قال أبو محمد: "وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن الله عز وجل يُعَلِّم من هو أنقص فضلا وعِلما في الجملة، أشياء لا يعلمها من هو أفضل منه واعلم منه بما عدا تلك الأشياء، فعلم الملائكة ما لا يعلمه آدم، وعلم آدم أسماء الأشياء ثم أمره بأن يعلمها الملائكة، كما خص الخضر عليه السلام بعلم لم يعلمه موسى عليه السلام، حتى اتبعه موسى عليه السلام ليتعلم منه، وعلم أيضا موسى عليه السلام علوما لم يعلمها الخضر، وهكذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الخضر قال لموسى عليه السلام: إني على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا"^(٢).

قال أبو محمد: وليس في هذا أن الخضر أفضل من موسى عليه السلام"^(٣). وابن حزم محق في رده هذا، ورده كاف شاف، لا يحتاج إلى زيادة بيان. نعم هذه فضيلة لآدم عليه السلام، لكن لا تقتضي أفضليته من كل الوجوه.

الحجة الخامسة: خدمة الملائكة لأهل الجنة.

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

^٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله ، ج ١ ، ص ٥٦ ، (١٢٢) .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

قال أبو محمد: "وقد قال بعض الجهال: إن الله تعالى جعل الملائكة خدام أهل الجنة يأتونهم بالتحف من عند ربهم عز وجل، قال تعالى: {تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وقال تعالى: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم} (١)" (٢).

رد ابن حزم

الوجه الأول : هذا القول لا دليل عليه وإنما خرافات وكذب من القصاص. الوجه الثاني : إذا كان إقبال الملائكة بالبشارات إلى أهل الجنة دليلاً على فضل أهل الجنة عليهم، يلزم من ذلك أن يكون إقبال الرسل إلينا مبشرين ومنذرين بالبشارات من عند الله عز وجل دليلاً على أننا أفضل منهم، وهذا كفر مجرد.

الوجه الثالث: إذا كان الفضل للأنبياء عليهم السلام على الناس بأنهم رسل الله إليهم، ووسائط بين ربهم تعالى وبينهم، فالفضل واجب للملائكة علي الأنبياء والرسل، لكونهم رسل الله تعالى إليهم ووسائط بينهم وبين ربهم تعالى.

الوجه الرابع : إذا كان الله تعالى قد تفضل على أهل الجنة بالأكل والشرب والجماع واللباس والآلات والقصور، فإنما فضلهم الله عز وجل من ذلك بما يوافق طباعهم، وقد نزه الله سبحانه الملائكة عن هذه الطبائع المستدعية لهذه اللذات، بل جعل طبائعهم لا تلتذ بشيء من ذلك إلا بذكر الله عز وجل وعبادته وطاعته.

^١ سورة الرعد الآية ٢٣ .

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

الوجه الخامس: عجل الله تعالى للملائكة سكنى المحل الرفيع الذي جعل تعالى غاية إكرامنا الوصول اليه^(١).

أقول : والله در ابن حزم في رده على من أساء الأدب مع الملائكة، فجعلهم خدماً لصالحي البشر في الجنة، بدون دليل ولا برهان. وهل كون الملائكة يدخلون عليهم من كل باب يدل على هذا ؟ إن هذا لشيء عجاب.

نعم للمخالف لابن حزم أن يستدل بقوله تعالى: [والملائكة يدخلون عليهم من كل باب]^(٢) على فضل صالحى البشر على الملائكة، ولكن ليس له أن يسيء الأدب مع الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم عباد مكرمون.

الحجة السادسة : الملائكة خلق مسخر.

قال أبو محمد : " وقال بعض السخفاء : إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح"^(٣).

رد ابن حزم

قال أبو محمد: " وهذا كذب وقحة وجنون؛ لأن الملائكة بنص القرآن والسنن وإجماع جميع من يقر بالملائكة من أهل الأديان المختلفة عقلاء متعبدون منهيون مأمورون، وليس كذلك الهواء والرياح لكنها لا تعقل ولا هي متكلفة متعبدة، بل هي مسخرة مصرفة لا اختيار لها قال تعالى: [والسحاب المسخر

^١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

^٢ سورة الرعد الآية ٢٣ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

بين السماء والأرض] (١) وقال تعالى: [سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام] (٢).

ثم ذكر الإمام ابن حزم الآيات الدالة على أن الملائكة عقلاء متعبدون منهيون مأمورون، فذكر قوله تعالى في الملائكة: [بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون] (٣) وقوله تعالى: [ويستغفرون لمن في الأرض] (٤) وقوله تعالى: [وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين] (٥).

قال "فقرن تعالى نزول الملائكة برؤيته تعالى وقرن تعالى اتيانه باتيان الملائكة فقال عز وجل: [هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة] (٦) واعلم أن اعراب الملائكة هاهنا بالرفع عطفا على الله عز وجل لا على الغمام" (٧).

أقول : وكون الملائكة غير مكلفة بالتكاليف نفسها التي كلف الله بها بني آدم فهو قول مقبول ؛ لأن الملائكة على سبيل المثال: طوافهم ليس كطوافنا، فنحن نطوف بالكعبة في مكة المكرمة، وهم يطوفون بالبيت المعمور في السماء السابعة.

١ سورة البقرة الآية ١٦٤ .

٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

٣ سورة الأنبياء الآية ٢٧ .

٤ سورة الشورى الآية ٥ .

٥ سورة الفرقان الآية ٢١ ، ٢٢ .

٦ سورة البقرة ٢١٠ .

٧ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

وأما كون الملائكة غير مكلفة مطلقاً فهو قول مردود؛ لقوله تعالى :
 يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم مأمورون بالعبادة
 والطاعة^(١) ، وهم بحسب تركيبهم . والله أعلم . لا يجدون مشقة في العبادة
 كالتي يجدها البشر .

و لا شك أن من قال: إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح قد أساء الأدب مع
 الملائكة، وكان يكفيهم أن يقول: إنهم عباد مكرمون ولا خلاف في فضلهم،
 لكن لا اختيار لهم في فعل الطاعة واجتناب المعصية، بخلاف الأنبياء
 فإنهم فعلوا الطاعات واجتنبوا المعاصي رغم شهواتهم باختيارهم، فمن هذا
 الوجه بان فضل الأنبياء عليهم.

الراجح في التفضيل بين الأنبياء والملائكة.

كل ترجيح يستند إلى ذكر خصيصة لأحد النوعين لا يشاركه فيها النوع
 الآخر فهو مردود.

وأقرب الأقوال إلى الصحة هو قول ابن تيمية بأن : "صَالِحِي الْبَشَرِ أَفْضَلُ
 بِاعْتِبَارِ كَمَالِ النَّهَائِيَةِ وَالْمَلَائِكَةِ أَفْضَلُ بِاعْتِبَارِ الْبِدَائِيَةِ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْآنَ فِي
 الرَّفِيقِ الْأَعْلَى مُنْزَهُونَ عَمَّا يُلَابِسُهُ بَنُو آدَمَ مُسْتَعْرِفُونَ فِي عِبَادَةِ الرَّبِّ وَلَا
 رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الْآنَ أَكْمَلُ مِنْ أَحْوَالِ الْبَشَرِ . وَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ
 دُخُولِ الْجَنَّةِ فَيَصِيرُ صَالِحُو الْبَشَرِ أَكْمَلُ مِنْ حَالِ الْمَلَائِكَةِ"^(٢). قال ابن
 القيم معلقاً على كلام ابن تيمية هذا: "وَبِهَذَا التَّفْصِيلِ يَتَبَيَّنُ سِرُّ التَّفْضِيلِ

^١ انظر أ. د. عمر سليمان عبد الله الأشقر : عالم الملائمة الأبرار ، دار النفائس ، ط ١٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٣٥ .

^٢ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

وَتَتَّقُ أَدِلَّةُ الْفَرِيقَيْنِ وَيُصَالِحُ كُلُّ مِنْهُم عَلَى حَقِّهِ" (١) . لكن المأخذ عليه هو:
هل إذا دخل الأنبياء وصالحوا البشر الجنة سيكون حالهم أفضل من
الملائكة أم مثلهم (٢)؟

واتضح مما سبق أن كل دليل من الأدلة التي تناولناها، بل والتي لم
نتناولها، فيه نزاع، وفيه أخذ ورد، بل الأدلة بمجموعها "في هذه المسألة من
الجانبين إنما تدل على الفضل ، لا على الأفضلية ، ولا نزاع في ذلك" (٣)،
لمن تجرد للحق.

وهذا الذي ذكرناه جعل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وغيره يتوقف في هذه
المسألة وفي البحث فيها من ناحيتين: التوقف عن البحث مطلقاً، والتوقف
عن التفضيل بين الجنسين ، وعزا ذلك لسببين:

السبب الأول : اختلاف الجنسين، ولا تفاضل بين الجنسين المختلفين.

السبب الثاني : اعتبار المرتبة عند الله عز وجل ، فهذا ما لا نعلمه
إطلاقاً (٤).

والذي يبدو لي . والله أعلم . أن الاختلاف بين الجنسين لا يمنع من
المفاضلة بينهما ؛ ذلك لأن الملائكة نفسها عقدت مقارنة بين الإنس والجن،
وبينها وبين الإنس كل ذلك في آية واحدة من القرآن هي قوله تعالى: إِوَاذْ
قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

١ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد ، هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد
العدوي - أشرف أحمد ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، ج ٣ ، ص ٦٨٤ .

٢ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة : تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ص ٧٠٦ ، انظر الحاشية رقم ٣ .

٣ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة : تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ص ٧٠٠ .

٤ انظر محمد بن صالح العثيمين ، شرح العقيدة السفارينية ، مدار الوطن للنشر ، السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ ،
ص ٦٥٧/٦٥٦ .

فِيهَا وَيَسْنِفُكَ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١).

وأقول: لا شك أن مقياس التفاضل في الشرع هو العبودية، وبما أن الأنبياء أكمل عبودية لله من الملائكة؛ لأن "عبادة من حقق العبادة مع إمكان المعصية وقدرته عليها أكمل من عبادة من حققها مع عدم إمكان المعصية منه ولا قدرة له عليها"^(٢)، فإن الراجح . والله أعلم . هو تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو:

هل للخلاف في التفضيل بين الأنبياء والملائكة ثمرة.

مر علينا في بداية هذا المطلب أن الصحابة لم يتكلموا في مسألة التفضيل بين الأنبياء والملائكة^(٣)، وينبغي أن يعلم أنه لا يتوقف على هذه المسألة أصل من أصول العقائد^(٤)؛ لذا رأى بعض العلماء أن أصل البحث فيها لا داعي له؛ لأنها والحالة هذه هي من فضول الكلام ، إذ لم يبينها القرآن ولا السنة ولا الصحابة فهي إذاً ليست من مهمات ديننا وأصوله^(٥).

^١ سورة البقرة الآية ٣٠ .

^٢ د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي : مباحث المفاضلة في العقيدة ، ص ٣٦٠ .

^٣ انظر ص ٣١٧ .

^٤ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة : تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ص ٧٠٠ .

^٥ محمد بن صالح العثيمين : شرح العقيدة السفارينية ، ص ٦٥٣ .

قال الإمام السفاريني: "وقد قال بعض العلماء: مسألة تفضيل البشر على الملك، أو الملك على البشر ليست مما يضر^(١) اعتقاده ويضر الجهل به، ولو لقي العبد ربه ساذجاً من هذه المسألة لم يكن عليه إثم، فما هي مما كلف الله الناس بمعرفته"^(٢).

وقال القاضي تاج الدين السبكي: "فالناس ثلاثة: رجل عرف أن الأنبياء أفضل من الملائكة واعتقده بالدليل، وآخر جهل هذه المسألة ولم يشتغل بها بالكلية وهذان لا ضرر عليهما، وثالث قضى بأن الملك أفضل، وهذا على خطر. وهل نقول إن من قضى بتفضيل الأنبياء على خطر، فيكون الساذج أعلم منه؟ أو أنه لإصابته الحق إن شاء الله تعالى ناج من الخطر، هذا موضع نظر، والذي كنت أفهمه عن الوالد: أن السلامة في السكوت عن هذه المسألة، وأن الدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى من غير ورود دليل قاطع دخول في خطر عظيم، وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه"^(٣).

ثم وضح أنه قد جاءت أحاديث تحسم بإشارتها مادة الدخول في ذلك، قال: "إِنْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَفْضُلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَى]^(٤) ونحوه، ونحن على قطع بأنه صلى الله عليه وسلم أفضل من يونس ولم يختلف في ذلك أحد، لعله إشارة إلى أنكم لا تدخلوا في أمر لا يعينكم،

^١ في الأصل يضر والصحيح يجب أو نحوه الشيخ محمد السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأنوار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرق المرضية، ج ٢، ص ٤٠٩، الحاشية.

^٢ الشيخ محمد السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأنوار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرق المرضية، ج ٢، ص ٤٠٩.

^٣ الشيخ محمد السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأنوار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرق المرضية، ج ٢، ص ٤٠٩.

^٤ تقدم تخريجه ص ٢٧٦.

وما للسوقة والدخول بين الملوك وأعنى بالسوقة في هذا أمثالنا وبالملوك الأنبياء والملائكة عليهم السلام "(١).

ونتيجة ذلك كله رأى هذا الفريق من العلماء قلة ثمرتها، وأنها " قريب مما لا يعني ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "(٢)، كما يقول صاحب العقيدة الطحاوية .

ويقوي هذا الإتجاه، إساءة الأدب من بعض من تكلم في هذه المسألة، فبعضهم أساء الأدب إلى الأنبياء! وبعضهم أساء الأدب إلى الملائكة! والتفضيل كما يقول صاحب الطحاوية: " إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس: لا شك في رده "(٣).

وكذلك إذا كان التفضيل عَلَى وَجْهِ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ كَانَ بِلَا رَيْبٍ مَذْمُومًا.

لكن: إذا تقرر أن من حقق العبادة مع إمكان المعصية وقدرته عليها أكمل من عبادة من حققها مع عدم إمكان المعصية منه ولاقدرة له عليها(٤)، تقرر أن البحث في هذه المسألة . وهي التفضيل بين الأنبياء والملائكة . له فائدة ، ذلك لأن العبد: " إذا علم أن تحقيقه العبودية لله يرتفع به في الفضل على منزلة الملائكة مع فضلهم وعلو منزلتهم ، ازداد إيماناً وقوي وازع التعبد منه، ووقف على عظيم فضل التوحيد، واستشعر ذلك استشعاراً يزيد سعيه لتحقيق

١ الشيخ محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأنوار الأثرية شرح الدرّة المضية في عقيدة الفرقة المرضية ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

٢ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة : تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ص ٧٠٠ .

٣ د. خالد فوزي عبد الحميد حمزة : تقريب وترتيب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ج ٢ ص ٧٠٠ .

٤ انظر ص ٣٣٩ .

العبودية لله" (١). ففائدة البحث في هذه المسألة هي إذاً ازدياد الإيمان لدى الباحث مما يقوي جانب العبودية لديه، والله أعلم.

وفي نهاية هذا المبحث لابد لنا من أن نتطرق لما ذكره الإمام ابن حزم من الأقوال الباطلة في التفضيل: كقول من فضل الولي على النبي وغيرها. وقد رأينا أفراد ذلك بمطلب منفصل هو المطلب التالي...

١ د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشطيفي: مباحث المفاضلة في العقيدة ، ص ٣٦٠ .

المطلب الثالث :الأقوال الباطلة في ترتيب الخلق بحسب الأفضل ورد ابن حزم عليها:

و لا اعتبار بالأقوال الباطلة كقول من فضل الولي على النبي، أو من جوز أن يكون في هذه الأمة من يوازي عمله عمل النبي صلى الله عليه وسلم، أو من جوز أن يكون من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين بعث إلى أن مات! أو من جوز أن يكون في هذه الأمة من هو أفضل من عيسى بن مريم! ولنستمع إلى الرد عليها من ابن حزم رحمه الله تعالى.

قال الإمام ابن حزم: "وذهب بعضهم إلى أن الولي أفضل من النبي، وأنه يكون في هذه الأمة من هو أفضل من عيسى بن مريم، ورأيت الباقلاني^(١) يقول: جائز أن يكون في هذه الأمة من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين بعث إلى أن مات، ورأيت لأبي هاشم الجبائي: أنه لو طال عمر إنسان من المسلمين في الأعمال الصالحة لأمكن أن يوازي عمل النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أبو محمد: ولولا أنه استحيا قليلا مما لم يستحي من نظيره الباقلاني لقال ما يوجب هذا القول من أنه كان يزيد فضلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٢). ثم حكم الإمام ابن حزم على هذه الأقوال قائلا: "وهذه الأقوال كفر مجرد لا تردد فيه"^(٣).

^١ هذا القول الذي نسبته ابن حزم للباقلاني لم أقف عليه فيما اطلعت عليه، بل نقله ابن حزم عن الباقلاني بواسطة أبوجعفر السمان كما

صرح بذلك في الفصل . انظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ص ٥٠، ٥٢، ٥٣ . وانظر ص ٣٤٨.

^٢ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥ ، ١٢٥ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥ ، ١٢٥ .

ثم بدأ يرد عليها فقال: "وحاشا لله تعالى من أن يكون أحد عمر عمر الدهر يلحق فضل صاحب، فكيف فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نبي من الأنبياء عليهم السلام؟ فكيف أن يكون أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هذا ما لا تقبله نفس مسلم، كأنهم ما سمعوا قول الله عز وجل: [لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا] (١) وقول النبي صلى الله عليه وسلم: [دعوا لي أصحابي فلو كان لأحدكم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه] (٢).

قال أبو محمد: فكيف يلحق أبداً من إن تصدق هو بمثل جبل أحد من ذهب، وتصدق صاحب بنصف مد من شعير كان نصف مد الشعير لا يلحقه في الفضل جبل الذهب، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (٣).

وما قاله ابن حزم هو الحق الذي لا مرية فيه، لوجه منها:

الوجه الأول: إذا عمل النبي عملاً وعمل غيره نفس العمل، فإن عمل النبي يكون هو الأفضل والأكثر أجراً عند الله سبحانه وتعالى بلا شك؛ وذلك لكمال توحيد النبي صلى الله عليه وسلم لله، وتجرده التام في العمل، وإخلاصه الذي لا تخاطه شائبة؛ لذا فحق لابن حزم أن يقول: "ركعة من نبي أو ركعة مع نبي أو صدقة من نبي أو صدقة معه أو ذكر منه أو ذكر

^١ سورة الحديد الآية ١٠.

^٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذاً خليلاً، ج ٣، ص ١٣٤٣، (٣٤٧٠). ولفظه عند البخاري: "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه تابعه".

^٣ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥، ص ١٢٥.

معه وسائر أعمال البر منه أو معه فقليل من ذلك أفضل من كثير الأعمال بعده" (١)، فأنى لعامل أن يدرك فضل عمل النبي وقد قال صلى الله عليه وسلم لصحابته: [قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم] (٢).

الوجه الثاني : إذا كان فضل الصحابي لا يمكن أن يدركه أحد وإن قدر أنه عمل أكثر من عمل الصحابي، فمن باب أولى ألا يدرك أحد فضل النبوة وإن قدر أنه عاش أكثر من النبي وعمل أكثر منه، فالنبوة هي الرحمة المهداة، والنعمة الكبرى ، وهي فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. قال تعالى : [أهم يقسمون رحمة ربك] (٣). وقال سبحانه : [ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم] (٤). وليس العبرة بكثرة العمل فإن أساس التفاضل في الأعمال هو التقوى، ولا أحد أتقى من الأنبياء، كما تقدم ، وكما هو معلوم. ولقد اصطفى الله أنبياءه من بين خلقه لمعرفة سببانه بطهارة قلوبهم وصفاء سريرتهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

قال ابن تيمية: "وَأَمَّا " الصَّحَابَةُ " و " التَّابِعُونَ " : فَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ : إِنَّ كُلَّ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِمَّنْ لَمْ يَصْحَبْهُ مُطْلَقًا ؛ وَعَيَّنُوا ذَلِكَ فِي مِثْلِ مُعَاوِيَةَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ مَعَ أَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ سِيرَةَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَعْدَلُ مِنْ سِيرَةِ مُعَاوِيَةَ قَالُوا : لَكِنْ مَا حَصَلَ لَهُمْ بِالصُّحْبَةِ مِنَ الدَّرَجَةِ أَمْرٌ لَا يُسَاوِيهِ مَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ

١ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤ ، ١٨٦ .

٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي صلى

الله عليه وسلم على التحريم إلا ما تعرف بإباحته، ج ٦، ص ٢٦٨١، (٦٩٣٣).

٣ سورة الزخرف الآية ٣٢ .

٤ سورة الجمعة الآية ٤ .

بِعَمَلِهِ" (١). فتأمل رحمك الله ، هذا فيمن صحب النبي صلى الله عليه وسلم فكيف بالنبي نفسه ؟

وبالجملة فإن إيتاء الله لفضله لمن يشاء من عباده أمر عظيم لمن تأمله. ويكفي لكي نعلم هذا الأمر أن نتدبر فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وكيف أن الله بارك لها في أوقاتها وأعمالها، فجعل لها على سبيل المثال عمل ليلة واحدة خير من عمل ألف شهر، وهو العمل في ليلة القدر.

وتأمل أيضاً حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما مثلكم واليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً، فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود على قيراط قيراط، ثم عملت النصارى على قيراط قيراط، ثم أنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً، قالوا: لا ، فقال : فذلك فضلي أوتيته من أشياء] (٢).

فإذا كان هذا لعموم أمتنا، فلا جرم أن تكون المباركة في الأعمال أكثر لصحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لفضل صحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا غرو أيضاً من باب أولى أن تكون المباركة في الأعمال والأوقات للأنبياء أكثر من تابعيهم، فلا يلحقهم في الفضل غيرهم مهما عمل . وشرعنا يوضح ذلك بجلاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبي

١ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٤ ، ص ٥٢٧.

٢ (البخاري) محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى صلاة العصر، ج ٢، ص ٧٩٢، (٢١٤٩).

بكر وعمر: [هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا ما كان من الأنبياء فلا تخبرهما] (١). ففي هذا الحديث الدليل على أن الأنبياء والمرسلين أفضل الأولين والآخرين.

الوجه الثالث : إن كان عمل العامل أكثر في صورته من عمل النبي فأنى له أن يدرك فضل أصل عمل النبي ، فعمل النبي طاعة لله وتشريع لأمة، وعمل غيره طاعة لله ومتابعة للنبي (٢)، فشتان ما بيت التابع والمتبوع، وما بين التشريع والعمل تبعاً للتشريع.

الوجه الرابع : من عاش أكثر من النبي وعمل أكثر من عمله فإن للنبي من الأجر مثل أجر أعماله جميعاً فأنى له أن يبلغ منزلة النبي ؟

وبرهان ذلك قول رسولنا صلى الله عليه وسلم : " من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء " (٣).

وأصل ضلال من جوز أن يكون في أمة النبي من يوازي عمله عمل النبي ما أصلوه عقلاً من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن ، وإلا فهم معترفون بأن الأنبياء أفضل خلق الله ، وأيضاً معترفون بأن الشرع لم يجوز ذلك (٤).

١ (ابن أبي شيبة) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، دار النشر، الرياض، مكتبة الرشد ، ط ١، ١٤٠٩هـ، كتاب الفضائل ، باب ما ذكر في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ج ٦، ص ٣٥٠، (٣١٩٤١). صححه الشيخ الألباني في الصحيحة ، برقم ٨٢٤ ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

٢ انظر د. محمد عبد الرحمن أبو يوسف الشطيبي : مباحث المفاضلة في العقيدة ص ١٨٧.

٣ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ج ٤، ص ٢٠٥٩، (١٠١٧).

٤ انظر ابن تيمية : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

ولقد ألف الترمذي كتاباً سماه ختم الولاية كُفِّرَ بسببه وأُخْرِجَ من ترمذ^(٤)، وهذا الكتاب جدير بأن لا ينظر إليه ، فإن عنوانه ينم عن ثقافة ما فيه؛ لأن: "خاتم الأولياء كلمة لا حقيقة لفضلها ومرتبته"^(٥)، وأيضاً فإن الأولياء باقون ما بقي المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط ١، ١٤٠٨ هـ، ج ١، ص ٣٩٢.

وهذا الكلام من أبي عبد الله الترمذي إنما كان غلطاً" لم يسبق إليه، ولم يتابع عليه، ولم يستند فيه إلى شيء" (١).

لكن جاءت طائفة من المتأخرين تابعت الترمذي في مقالتيه، وهما: [القول بتفضيل الولي على النبي، والقول بخاتم الأنبياء]، وأدى ذلك إلى القول بالحلول (٢)، وإلى القول بالاتحاد (٣)، ومن هؤلاء ابن عربي صاحب كتاب الفصوص (٤) والحلاج (٥).

قال الإمام ابن حزم: "وآخرون كانوا من أهل السنة فغلوا فقالوا: قد يكون في الصالحين من هو أفضل من الأنبياء ومن الملائكة عليهم السلام، وأن من عرف الله حق معرفته فقد سقطت عنهم الأعمال والشرائع وقال بعضهم بحلول الباري تعالى في أجسام خلقه كالحلاج وغيره" (٦). ولا شك أن هذا كفر، وقد مر علينا أن ابن حزم يقول بتكفير من يقول بتفضيل الولي على النبي. ومما يؤكد ذلك أيضاً أنه ذكره في موضع آخر فقال: "فإن قال قائل: فإن الأنبياء عليهم السلام عنده يجترجون السيئات، وفي سائر الناس من لا يجترحها، فوجب أن يكون في الناس من هو أفضل من الأنبياء عليهم السلام.

١ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس: بغية المراتد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ج ١، ص ٣٩٢.

٢ القائلون بالحلول يعتقدون أن الخالق حال في أجسام المخلوقات.

٣ القائلون بالاتحاد يعتقدون أن الخالق هو ذات المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٤ تقدمت ترجمته ص ٥٤.

٥ هو الحسين بن منصور الحلاج المقتول على الزندقة بسبب قوله بالحلول ثم قال بالاتحاد، أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط بالعراق. تعلم السحر وأرى الناس خوارق السحر، أباح العلماء دمه فقتل في بغداد سنة ٣٠٩ هـ، والكل أجمع على قتله إلا طائفة قليلة من الصوفية اغتروا بظاهرة ولم يعرفوا حقيقة باطنه. انظر ابن حجر: لسان الميزان ج ٢، ص ٣١٤. وانظر إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو

الفداء: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٣٨.

٦ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٢، ص ٢٧١.

وهذا كفر وما قدرنا أن أحدا ممن ينتمي إلى أهل الإسلام ولا إلى أهل الكتاب ينطلق لسانه بهذا، حتى رأينا المعروف بابن الباقلاني فيما ذكر عنه صاحبه^(١) أبو جعفر السمناني قاضي الموصل^(٢)، أنه قد يكون في الناس بعد النبي صلى الله عليه و سلم من هو أفضل من النبي صلى الله عليه و سلم، من حيث يبعث إلى حين يموت، فاستعظمنا ذلك، وهذا شرك مجرد، وقدح في النبوة لا خفاء به^(٣).

قال : "ولو أن هذا الضال المضل يدري ما معنى لفظة أفضل، ويدري فضيلة النبوة، لما انطلق لسانه بهذا الكفر وهذا التكذيب للنبي صلى الله عليه و سلم، إذ يقول: {إني لأتقاكم لله وإني لست كهيتكم وإني لست مثلكم}،^(٤) فإذا^(٥) قد صح بالنص أن في الناس من لم يجترح السيئة، وأن من اجتراح السيئات لا يساويهم عند الله عز و جل، فالأنبياء عليهم السلام أحق بهذه الدرجة، وبكل فضيلة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام يقول الله عز و جل: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس}^(٦)، فأخبر تعالى أن الرسل صفوته من خلقه"^(٧).

^١ وهذا صريح في أن ابن حزم إنما نقل هذا القول عن أبي جعفر السمناني . وانظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ٥٠٢، ٥٠٣ . وانظر ص ٣٤٢.

^٢ انظر ترجمته ص ٢٣١ .

^٣ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

^٤ (مسلم)، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال، ج ٢، ص ٧٧٦، (١١٠٥). ولفظ مسلم "عن عائشة رضي الله عنها قالت: نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني".

^٥ هكذا في الطبعة، والصحيح إذ.

^٦ سورة الحج الآية ٧٥.

^٧ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٥٣ .